

رواية

أم كلثوم

رواية

دينا نسريني

مكتبة عابث الإلكترونية

أمل

رواية لـ

دينا نسريني

للنشر
والتوزيع

الكتاب : أمل

المؤلف : دينا نسريني

الصورة : عدسة أحد فناني الثورة الثورية

التصميم : دينا نسريني

تدقيق لغوي : دينا نسريني

رقم الإيداع : 2014/ 8836

الترقيم الدولي : 978-977-6436-51-0

الطبعة الأولى : 2014

20 عمارات منتصر - الهرم - الجيزة

ت-011-27772007 02-35860372

Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناسخ

نك
للنشر
والتوزيع

لكنوزي الثلاثة أبي وطفلاي الرائعان أحمد ودلع
لكل طفل أدخل بهجته وجماله إلى حياتي
لكل سوري منح سوريا حبه وصبره مهما كان انتماؤه ورأيه
لسوريا ودموعها المناسبة لأكثر من عامين حتى الآن
لسندي وظهري وحملي وأملتي.... لأننا
لكل هؤلاء أخئي في قلبي الكثير من الأمل
أهديكم .. أمل



عَابْثُ
FB/3abeth

مكتبة
عابث

<http://mjansen.blogspot.com>



@mjansen23

الثورة والحرب .. بستان أملٍ وحقل دماء، ضدان مترادفان و على أرض
بلدي نبع الحب والخير كان لهما أن يلتقيا، كان لهما أن يرتبطا و ثمرة
ارتباطهما ما زالت جنيئاً في رحم المستقبل، وما بين رومنسية الثورة وقسوة
الحرب قصصٌ لا تعد ولا تحصى و ما قصتي هذه إلا حرفٌ في مجلد حكاوي
سوريا الثورة و النجوم الحمراء الثلاثة ...

نجمتان خضراوان هو ما كنا قد تعودنا أن نرسمه على دفاترنا و صبور
حافظ الأسد كانت تراقبنا في كل زاوية و شارع لتذكرنا دوماً : "الأرض أرضه،
البلد بلده"، و إن كان في حنجرتك بقايا صوت، فلدك من الأجهزة الأمنية
أربعة تتناهش لحملك فيما بينها و (توديك لورا الشمس) كما كانت تصفها
الهمماتُ المذعورة .

سواء كنت في سريرك مع زوجتك، أو حتى في الحمام ! كلمة " أسد " كانت
تخضع للرقابة المطلقة، فقد كانت توأمةً لنظرة غريبة من الخوف و الترقب، و
تترامى إلى مسامعنا دوماً، قصيص من ذهبوا و لم يرجعوا، و دوماً للطنائين
تذكرة بأن الثمن لن يكون فريداً فالأسرة كلها متدفع الثمن .

أغلال الخوف و الصّمت تدلت من أعناق شعبيّ بأكمله و في رحابها نمت
كلماتٌ عطنة، كلماتٌ يدرك مفزاها جيداً فقط من عايش ذلك " العصر
الذهبي "

(ما بتعرف مع مين عميتحكي) للمسنود باسم شخص مهم .

(رشرش حيك يا جميل) لمن يطالبك ببضعة مناتٍ أو الاف، ليقدم لك
إمضاءه الثمين .

(ولك قرد ولو) طبعاً لأي أخ من الطائفة العلوية، كلمة تفتح كل الابواب المغلقة: لكن بضعة مفردات أيضاً كانت قد بدأت تخترق حاجز الصمت الأُسدي الذي بدى رقيقاً متخلخلاً تحت ظل حكم (ولي العهد)...

(مصر ليست تونس)، (سوريا ليست مصر)، (العراق)، (الكورد) :

(الشعب يريد إسقاط النظام) كتبها يدٌ طفوليةٌ جريئةً على جدران مدرسة...

كرامةٌ بدوية، و غباةٌ و همجية عسكرية، كانت بدايةً للمحمة قوامها سيل دماءٍ سالت قرياناً لكلمة واحدة : (حرية) !.

ما الحرية ؟ سؤال دار و دار و دار، و لا زال يبحث عن جواب له بين جنبات عقولٍ عشش فيها الخوف، و أخرى أزكمتها رائحة البنكنوت: في قصص ألف ليلة قصةً عن تجارٍ رامهم البحر بين يدي قبيلةٍ من المتوحشين، يطعمونهم طعاماً يحولهم إلى خنازير ترعى كالماشية، عندها نسي التجار آدميتهم و ظلوا يأكلون و يأكلون و يأكلون حتى إذا امتلأ جلدهم دهناً و لحماً و سمنوا .. طاب ذبئهم و أكلهم .

(ولاك بدك حرية ولاك، إي هي الحرية خووووو)

(والله ما إلي علاقة أنا، والله ما إلي علاقة)

و أغني أنا من بعيد : " أذني الحاكم كأذني الحمار ! " : قصةٌ أخرى عن حقيقة كنتمها صاحبها في حفرٍ في الغابة خشية أن تطال أذن أحد فينال منه غضب الحاكم، كانت حفرتي صفحات الفيس بوك، أكنتم فيها صراخي، و مع الوقت ... انقشر الصدى في الاثير و سَمَوني معارضة، أو ناشطة، و في أوقاتٍ أخرى (مندئة).

دقاتٌ على الباب أوقظتني من سباتٍ يقظتي اليومي، و صوتٌ كهديل
الجمائم ينادي :

- "أمي هل تأخرنا؟" طريقة ملاكي لتذكركني بأنني تأخرت .

- "حبيبي أحضري لي حذائي لو سمحتِ " ناديتها بصوتٍ باسم قبل أن
أطبق شاشة حاسوبي و أفتح لها الباب، رأيتها واقفةً و البسمة تضيء وجهها
الصغير و حذائي الكبير في يدها .

- "شكراً لك يا أحلى أميرة".

تنائر الضوء على شعرها الطويل الذي كان مربوطاً بعناية بشريطٍ وردّي
ليتماشى مع تنورتها الرقيقة و الأساور على معصمها؛ حبيبي كانت دوماً
أنيقة.

بضعة دقائق فصلتنا عن الشارع حيث بدأنا رحلتنا اليومية إلى المدرسة ،
اليد الصغيرة في يدي كانت باردةً جداً، لا كهبراء، لا مازوت، لا تدفئة !

أسدلتُ كمّ معطفي على يدها الصغيرة فابتسمت و رمت لي قبلةً سريعة .

يووووووووم: لم يعد الصوت يخيفنا، لكنه ما زال يرسم على وجه كلٍّ منا
نظرةً قاسية، حتى الطيور ما عادت تخاف من الصوت، فعلى الرغم من قوة
الدوي الذي ملأ الأجزاء إلا أن غراباً أو اثنين كان كل ما قد انطلق في السماء
ناعياً: اشتقت لأصوات الصباح ولزقزقة العصافير...

هبت نسمة شتائية باردة، فالتصقت بي طالبة الدفء، فيما تراقصت حول قدمينا بضعة زهرات ياسمين ذابله، ما كنا نرى ياسميناً ذابلاً على الأرض من قبل، فأيدي الصغار والعشاق كانت تتسابق لتقطف البسمات البيضاء من على أكف الشجرة الحسنة، عربون حبّ و امتنان: الآن... لسبب ما، باتت شجرة الياسمين شجرةً منبوذة، لا يكاد أحدٌ يلقي بالألها ولا إلى أزهارها. فيموت الياسمينُ مع قسوة الشتاء والوحدة، من يعني موتَ الياسمين، والبشر يموتون بعشرات الآلاف؟!

- "ليس كلهم يا ماما ..."

كانت تقصد بكلامها بائع الأخشاب الذي مررنا به: رجلٌ واقف على الرصيف مع طاولته، فأس والكثير من الحطب .

- " أجل يا حبيبي، هو أيضاً يحاول أن يعيش."

أنا أعرف هذا الرجل بالذات، لقد كان مهندساً لامعاً في شركة معمارية كبيرة ... لقد ... كان !.

انتشلتني من أفكاري بسرعة وهي تسحبي بعيداً عن الرصيف نحو الشارع، فما عاد الرصيف يتسع لنا، بعد أن بات مكتظاً بالخيم البلاستيكية والشوادر) من كل شكل ولون، بعضها يجلس فيها أطفالٌ ونساءٌ وشيوخ، لكن النسبة الكبرى منها كانت محلات بقالة، ولحوم، ومنتجات تركية - تركيةً تحديداً - هذا هو السوق الذي كنا نقصده يوماً ونشتري منه على كل حال، فكل الأسواق الأخرى إما أنّها قد تهدمت وهجرت، أو أنّها تقع في خانة ما يسمى بالمناطق الخطيرة؛ تمرُّ بالمحلات أو الخيم هذي، تنظر إلى البضائع فتفكر: " أتري سرقوا هذه البضاعة من مخيم لاجئين أم اشتروها منهم؟ أتري هذا الثوب سرق من خزانة بيتٍ مُغتصب؟ أتري هذه البضاعة أخذت عنوةً من صاحب مصنع وهم يفرغون الرصاص في جسده؟" وتشتري وأنت بالكاد تجد جواباً مريحاً تُسكِّت به صوت ضميرك: " أتراني ادفع نقوداً لمن سيقبطني غداً؟ "

لكن الياسمين صديقي منذ الصغر؛ اقتريت من شجرة وقطفت بضعة زهيراتٍ و قدمتهم إليها، قرّتهم من وجها الملاك ... فما تدري أزداد الزهر بشرتها جمالاً أم زاد جمالها الزهر جمالاً، ارتسمت على شفثها الورديتين بسمة حلوة

لكن الياسمين صديقي منذ الصغر؛ اقتريت من شجرة وقطفت بضعة زهيراتٍ و قدمتهم إليها، قرّتهم من وجها الملاك ... فما تدري أزداد الزهر بشرتها جمالاً أم زاد جمالها الزهر جمالاً، ارتسمت على شفثها الورديتين بسمة حلوة

- "رائحة زكية جداً!" وثمت يدي بطاعة، " لكن رائحة الفحم هذي مزعجة!"

مشيرةً إلى إحدى (تَنكَّات النار) المتراصة على جنبات الطريق؛ استطردت بغضبٍ خاطف طفولي:

- " إنهم يقطعون الأشجار يا ماما!"

- " حبيبي لا بدّ لهم من أن يتدفؤوا ليعيشوا!"

أجبتها و أنا أغضُّ بصري الذي وقع على إحدى خيام النازحين البلاستيكية؛ أسرةً باكلها تعيش على قارعة الطريق، لا يحفظها من البرد إلا

- "ماما، من أين جاء هذا بالماء ؟"

(٢)

كان طفلاً يحمل دلوين ضخمين من الماء يصارع ثقل وزنهما و صفر سته كي يوصلهما إلى البيت.

وصلتُ إلى صفتي، وضعتُ حقيبتي ومعطفي وبدأتُ باستقبال الوافدين المسفرار، كلهم يتشاركون ببسمة جميلة تزرع في القلب فرحاً لا يماثله شيء في الدنيا...

- "من أين جاء هذا بالماء ؟" كررت سؤالها بعند فأنا من منعها صباحاً من تنظيف أسنانها فالمياه مقطوعة منذ ثلاثة أيام و ما تبقى لدينا في (الغزان) بالكاد يكفينا للشرب: وفكرت كيف لي أن أشرح لها نظرية تعلمتها أنا مؤخراً عن الآبار الجوفية الموجودة تحت مدينة حلب و عن فكرة (الجَب) الموجود تحت كثير من العمارات في منطقتنا، لكنني لم أجد طريقة أشرح بها الموضوع لها بطريقة تستوعبها بها أعوامها الستة، أخذتُ تهيدةً طويلةً و رددت باقتضاب :

"- صباح الخير"

"- صباح الخير يا أجمل عصفورة"

"- صباح الخير"

"- صباح الورد يا قمري"

"- صباح الخير"

- " من الجَب يا حبيبتي "

- "صباح الفلّ، بالها من تنورة جميلة !"

كانت تريد أن تسأل لكنها قرأت في وجهي أنني لا أريد أن أجيب، شدت قبضة يدها الصغيرة على يدي و تابعت السير، وبدأت تغني أغنية فرنسية طفولية، ابتسمت و شاركتها الغناء و وصلنا إلى المدرسة و نحن نققه: سبحان الله ما أجمل عالم الصغار.

مهما هلئتُ من بسماتهم اليرينة، ما كنتُ لأرتوي فإله رزقي كل صباح بنهر من السعادة المقطرة من أنقى ينباع الحياة: الطفولة.

بدأنا كعادتنا يوماً حافلاً، و ما بين التلوين والأغاني والأسئلة و النقاشات مرت ساعات اليوم بسرعة ...

- " ما هي أحلامكم ؟ " سؤالٌ طرحته لأمهد به طريماً لشرح فكرة جديدة .

"- أن أعود ليبيتي "

"- أن لا تنقطع الكهرباء "

أن ... أن ... أن ... كان للإجابات كلها طعمٌ مرّ في حلقى، لم يتمنّ أحدهم حذاءً جديداً، كرة أو دمية، لم يتمنّ أحدهم مهنةً للمستقبل، لم يتمنّ أحدهم أيّ أمنيةٍ طفولية، الكلّ كان يريد أبسط حقوقه في الحياة، أن يعيش حياةً طبيعية، أن يشعر بالأمان: بلعثُ غصّةٍ كادت تخنق الكلمات في حلقى و اصطنعت بسمةً كبيرة ...

" - الله يحبكم جميعاً وسيحقق لكم كل أحلامكم إن شاء سبحانه و تعالى، ما رأيكم أن ترفع أيدينا و ندعوه؟"

و هدأ قلبي عند رؤية الأكف الصغيرة تبتهل و ترفع الدعاء، هو يرى و يسمع و يعرف، سبحانه !

أكملنا دروسنا ما بين حروف و أرقام و أناشيد، أما الحصبة الأخيرة فكانت لتعريف الأطفال بالمهن المختلفة و دورها .

" - ماذا يستخدم الطبيب أثناء عمله ؟ "

بوو

أجل اعتدنا على أصوات الانفجارات، لكن هذا الصوت كان مختلفاً، كان قريباً جداً لدرجة أن باب الصّف المظل على الحديقة ارتجّ بقوة، العيون كلها اتجهت نحو الباب و فيها نظرةً خائفةً مترددة .

" - لونا أجيبيني ما أدوات الطبيب ؟ "

انقلش سؤالي لونا و من يجلس إلى جانبها من أفكار كنت أعرف بأنّها ليست وردية و لا طفولية، و نظرةً لوجه ثرى و نظرتها التائهة جعلتني أدرك

بأنّها انسحبت من عالمنا إلى عالمٍ في داخلها يحلو لها أن تقبع فيه أسيرة و حدثنا لتحس بأمانٍ مزيف، أفضل ما يمكنها الحصول عليه في ظروف كهذه .

صفقت يديّ بقوة، مطالبةً إياهم أن ينتهوا لي عليّ أتمكن من انتشالهم من المكان الذي أخذهم الصوت إليه، و على الرّغم من توترتي و ارتعاش قلبي إلا أنّي نجحت، و عاد البريق المحب للمنافسة و المعرفة إلى العيون الصغيرة .

" - يستعمل الإبرة "

" - يستعمل ميزان الحرارة "

" - يستعمل الأدوية" كانت الأجوبة تتسابق بسرعة لكسب نقط التفوق

" - حسناً من منكم يعرف ... "

بوو

هذه المرة جاء الانفجار أقرب و أقوى صوتاً حتى أن الباب انفتح على مصراعيه من شدة الضّغط: تابعتُ و أنا أقترِب من الباب لأغلقه :

" - ... هي مهمة الطبيب؟ "

تابعتُ بتصميم، لكن نظرةً إلى الأيمن الهلعة كانت كافية لأدرك بأن تجاهل الأمر لن ينفع هذه المرة .

" - الرّيح شديدة اليوم، حتى أنّها فتحت الباب ! "

استدركتُ هدهوء مصطنع، كان علي أيضاً أن أبعدهم عن الباب فالباب فيه زجاج وإن وقع انفجار ثالث فالشظايا قد

"- ما رأيكم أن نتبعد عن الباب قليلاً كي لا تصيبنا الرياح القوية بالزكام؟" وكأنما كانوا ينتظرون إشارةً متى ليبتعدوا بسرعة عما صنفته فطرهم على أنه مصدرُ الخطر: كررت مرة أخرى:

"- الرياح شديدة اليوم!"

كنت أدرك بأنهم يعرفون، كلهم يعرفون الانفجارات و الاشتباكات و القصف و المسلحين و الجيش، كلها كلماتٌ وجدت لها مكاناً بين حصيلة مقدراتهم الطفولية إلى جانب قوس قزح و النجوم و الأزهار و الفراشات، إلى جانب الأشرطة الوردية و كعكة الشوكولا و الفراولة، إلى جانب باربي و قلة و سبايدر مان و جراندايزر و أبطال اليوبو و ناروتو، كان هناك الدبابة و طائرة الميغ و عند بعضهم الهاون و السكود كنت أعرف بأنهم يعرفون جيداً ماهية الصوت الذي سمعناه، لكنني كنت أعرف أيضاً أنهم بحاجةٍ لكذبية يصدقونها و يتشبثون بها ليصلوا لإحساسهم بالأمان و إن كان مزيفاً، لكن ... ليس من السهل اقتناع الجميع .

"- هذا صوت انفجار"

"- الانفجارات بعيدةٌ عنا يا حبيبتي و لا علاقة لنا بها"

و جاء تساؤلٌ آخر من طرف الصنف الأبعد عن الباب الزجاجي :

"- ماذا نفعل لو جاؤوا عندنا ليمتلونا؟"

"- حبيبتي هم بعيدون عنّا و نحن معكم و لن نسمح لأحدٍ بأن يقترب منكم"

تعال صوت عبودة أصغر عصافير صقي و هو يعلقُ لاهناً ليعبر عن ثقة ابن الثلاث سنوات بعالم الكبار:

"- لن يدخلوا، إن دخلوا هنا ستأتي الشرطة و تأخذهم!"

لم أتمكن من الابتسام، على الرّغم من طفولة تعبيره إلا أن المشاعر الأخرى كانت أقوى من أي وصف.

"- لنغني أغنيةً حلوةً للأغاني و الأناشيد وقع السحر على الأطفال "

ماما .. ماما .. ما احلاها لا تحلو الدنيا لولها!

بدأ الأهالي يتوافدون مبكراً لاصطحاب أطفالهم إلى البيت و على وجوههم قاسمٌ مشترك، إصفرارٌ شديد، و نظرةٌ خوف و قلق، ترامي إلى مسامي بضعة كلماتٍ مضغها الخوف و التردد قبل أن تُفُلت من شفاهاً أصحابها: (المدينة الجامعية ...) (عشرات القتلى...) (طائرة ميغ ...) (قذيفة ...) (الطرق مقطوعة...)

دخَلتُ إلى صقي هدهوء، معطفها الأبيض أقلُّ شحوباً من خديها الرقيقين، و تموجٌ في عينيها الخضراوين الساحرتين نظرةً مؤلمة، ابتسمتُ لها فردت الابتسامة بأخرى مهزوزة، منحنتها حضناً طويلاً، عليّ أمنحها به شيئاً من الأمان و السكينة .

"- أحبك"

- "أحبك أكثر"

خرجنا من باب المدرسة و اللّغظ في كل مكان و تترامى لك أحاديث المارة بادئة ب "لا حول و لا قوة إلا بالله" و مختتمة ب "تعينا .. لقد تعينا!"

- "ما رأيك أن نمشي من هناك لنرى ما حدث؟"

سألها مشيرةً للاتجاه الذي جاء منه صوت الانفجار، الطريق المؤدي لاكبر تجمع للنازحين في مدينة حلب: المدينة الجامعية

- "لا ماما .. لا أريد!"

شدت يدي و نظرة الرعب تقفز من عينيها، كم أنا انانية! أيّ مشهد أريد أن أطلعها عليه!

استدردنا للاتجاه المعاكس و مشينا في طريقنا نحو المنزل.

كنت أعلم بأنهم سيضربون المدينة الجامعية بعدما اكتظت باللاجئين، هم يسهّدون التجمعات السكنية، الحدائق في الأعياد، الأسواق في ساعات الأزدحام، و طبعاً المدينة الجامعية كان قصصها مجرد مسألة وقت، خصوصاً بعد توزيعهم المنشورات تطالب النازحين بالعودة إلى بيوتهم التي صارت "آمنة"، يبدو أن سرعة سقوط ثكناتهم جعلتهم في حاجة للمزيد من المساحات، لكن مهات! لا تفجّروا و لا عشرة تفجيرات ستخلي هؤلاء الناس!

و فيما أنا غارقة في الأفكار سحبتني من يدي مجدداً لتبعدي عن الرصيف إلى الشارع، نظرتُ لها مستغربة فقد ابتعدنا عن منطقة الأسواق و في الرصيف متسع لنا، لكنها التصقت بي مختبئة خلفي، تابعت نظراتها حتى

وصلتُ إلى قطة ... مجرد قطة! لم أكن يوماً أخشى القطط .. إذا جاز لي أن أسمى الكائن الذي مررنا به قطة، بذيلها المقطوع و فكها الأجرد و بقايا الدم على أقدامها و ذقتها، لم يكن ذلك ما أخافني، لكن ما جعل القشعريرة تسري لي جسدي كانت نظرة في عيون القطة، نظرة متوحشة، كأنها تقول لك "لقد سبق لي أكل أشلاء من هم مثلك!"

دنا في دائرة حول القطة و نحن نراقبها، فيما هي ترمقنا بنظراتٍ جائعةٍ مخيفة، و لم ترتج صغيرتي أمل و تبتعد عني حتى تجاوزناها بمسافةٍ لا بأس بها ..

- "إش ما عندك ولاد!" علا صوت الرجل المسن الذي مررنا به، نظر له البائع الذي كان يخاطبه نظرةً فارغةً و هو يحمل كيس الخبز بين يديه: أخفض المسن رأسه بانكسار و سحب الطفل الواقف إلى جانبه من يده و أكمل طريقه في الاتجاه المعاكس و هو يتم بكلماتٍ غير مفهومة، لمحتُ دمعاً ترقرقت على وجنة الطفل، مسحها بكمه بسرعةٍ و كبرياء، و واصل مشيه مع الرجل المسن .

لم أنتبه إلى أن الأصوات قد هدأت إلا وهي تسبحني من يدي

- "أمي أنظري..." قالت لي وبسمة فخر تشعّ لتملا وجهها الجميل، نظرتُ لمسبورتها حيث رسمتُ رسماً طفولياً جميلاً، وقبل أن أسألها بادرني بالشرح

- "هذه أنت يا ماما تحملين قنينة ماءٍ ساخنة كي تتدفني، وهذا جدي يحمل كوباً من الشاي ليديني به يديه ووجهه .."

- "وأين أنت يا حبيبي؟"

فردت مبتسمةً

- "أنا مختبئة تحت الأغطية على سريري"

أي ثقافةٍ منحتم لأطفالنا! سعيدو الحظ منهم لديهم أغطيةٌ يختبئون فيها من شدة البرد، موسيقاهم أصوات المدافع، مفرداتهم البنادق و النصف، يرتعون من صوت الطائرة بدلاً من القفز فرحاً لرؤيتها، ويسألون لو كان قوس قزح دخان طائرةٍ حربية ... أي ثقافةٍ منحتم لأطفالنا وحلمهم بهمهم وبعض الدفاء وشيء من الحنان! أي ثقافةٍ منحتم لأطفالنا والمدارس نصف وأطفال يتعلمون كيف يمشون ملتصقين بالجدران خشيةً من رصاصه قنّاص! أي ثقافةٍ منحتم لأطفالنا و"جرة الغاز" هو ما يتمنون توفّره في الجئة! ثقافة الحرب!

همستُ لي بصوت مرتعد ..

- "أمي أنا بردانة."

وصلنا إلى البيت، كالعادة، كان كل شيء يبدو باهتاً كئيباً في الظلمة التي لا يكد يكسرها الضوء الشتائي الشحيح المتسلل من النوافذ، والبرد الذي يكلّل إحساسك التام بالوحشة والهجران .

دخلتُ رأساً إلى غرفتي لأنجز بضعة أعمالٍ كتابيةٍ عليّ أن أنجزها قبل أن تغرب الشمس، ونفوق في الظلمة الحالكة التي لا يمحيها إلا أنوار شمعةٍ توزع نورها الضعيف بتردد مرتعش، إذ تكاد تخجل من ضحالة نورها، فتذوب على عجلةٍ لتسجد بانسةً أمام رهبة الظلام .

انتهيت من عملي بسرعةٍ واندسست في سريري، لم أتمكن من النوم لشدة البرد، ذهبتُ إليهم لأجدهم جالسين يتلون بعض سور القرآن، وجوههم الطيبة تفيض نوراً وبشراً.

"بسم الله الرحمن الرحيم - أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَ وَضَعْنَا عَنَقَكَ وَزُجْكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨) صدق الله العظيم "

إن مع العسر يسرا ... ترى الله كان يعلم بما سنمر به فأرسل لنا آياته لتزول سلاماً على نفوسنا الجريحة ؟ سرحت في بحرٍ من الأفكار وأنا أستمع للأصوات الملائكية، تارةً أشاركها، وتارةً أصغني لها باستمتاعٍ وأنا جالسةً على كرسي المعتاد، طالبةً بعض الدفاء ليدي في الصوف الذي أحيكه شالاً لأميرتي الصغيرة، لتغطي به أنفها الصغير من لفحات البرد :

هرزت رأسي باسمه واستمتعتُ بعدها بخمس دقائق متواصله من
صرخات البهجة والقفز في كافة أنحاء الغرفة، أنها ثم ركضت إلى الحمام
لأغسل يديها ووجهها وأسنانها، نادتي من هناك سائلاً:

"هل بإمكانني طرد المياه من المرحاض؟"

"نعم يا حبيبي يمكنك ذلك."

عدة صرخات بهجة أخرى تلت إجابتي، ثم جاءت لعندي سعيدة كاشفة
عن أسنانها لتريني نتيجة عملها، وعلى الرغم من التسوس الذي غزى بعضاً
من أسنانها اللينة الصغيرة، إلا أنني قلت لها كالعادة بأن أسنانها لامعة
جميلة، فرحنت وبدأت بترتيب كتبها وارتداء إياها لتكون جاهزة للمدرسة، و
مثلاً فعلت.

بعد الرحلة اليومية المعتادة وصلنا للمدرسة، توجهتُ إلى صفها وتوجهتُ
إلى لصفتي، وبدانا يوماً جديداً مليئاً بالتفاؤل والأمل وبسمات الأطفال
المهتمة، كان يوماً جميلاً، على الرغم من انزواء ثرى وتوقعها النفسي التام
بعد تفجير البارحة، وعلى الرغم من بعض الآثار النفسية التي لاحظتها على
الطلاب الأطفال إلا أن اليوم كان جيداً، ممتعاً كالمعتاد.. الأطفال زينة الحياة!

اقتربت منها وحضنتها عليّ أمنحها شيئاً من دفء جسدي، لكن جسدي
كان أشد من جسدها برودة، وضعتها على سريرها ووضعت فوقها من
الأغطية أربعة، وأحضر جدها قنينة المياه الساخنة، وما هي إلا دقائق حتى
خلدت إلى النوم، وعلى الرغم من شدة البرد، أحسست بناي تشتعل في قلبي
رأسي، ارتديت معطفي وخرجت إلى الشرفة، الظلمة تتلاعب بأغصان شجرة
الياسمين والجاردينيا تشتكي من قلة المياه، أما شجرة الفلّ فكانت ترمي
أوراقها على الأرض في مناجاة هادنة كما تعد العاشقة أوراق زهر الأقحوان
سنتحرر.. لن نتحرر.. سنتحرر.. لن نتحرر..": خيالات ضوء القمر تراقص
على الأرض بسخافة، فالقمر باهت لا لون له، و السماء ملبّدة بالدخان
الغيار، أما النجوم فكانت تراقب من بعيد بصمتٍ مستفز، عتمة مدينة تنام
في ظلمة يومية، انحدرت دموعاً من عيني.. رباها! ألهما الصبر!

استيقظت فجراً على صوتٍ لم أسمعهِ منذ مدة، صوت مياهٍ سارية
ركضتُ إلى الحمام متعثرةً والنوم يملأ عيني لأرى صنبور المياه المجهور منذ
أكثر من أسبوعٍ ينبض بالماء والحياة، حمدتُ ربي على استيقاظي باكراً وبدأتُ
رحلة تعبئة المياه في كل ما يصل إلى يدي من أوعيةٍ وقناني، هذا للظهو وهذا
للتظليل وهذا للغسيل وهذا.. وهذا.. وهذا.. وبعد ان اطمأننتُ لوجود
ما يكفي من مياه، أيقظتُ جميلتي بقبلةٍ على خدّها

"أمل حبيبي ألا تردين تنظيف أسنانك؟"

كانت تحب تنظيف أسنانها لتقباهي أمام معلمتها ورفاقها باتباعها لقواعد
النظافة واللياقة، فتختُ عينها غير مصدقة

"أعدت المياه؟"

أما جميلي الصغيرة فكانت تدّخر ساعات الكهرباء لتتبع أمام التلفاز
وعانق عيناها أضواء الشاشة الملونة بشغف .

أسرت لي مرةً بمرارة، محاولةً كظم دموعاً ترقرت في زاوية عينيها:

"- ماما ... شكل البيت كئيبٌ عندما يغزوه الظلام، وأحسنَ في بعض
الأحيان أنني سأبكي بلا سبب ."

الأيام كانت تمضي متشابهةً كئيبية، أصوات الانفجارات اليومية، أخبار من
ماتوا ومن اختفوا، معارك وأسماء جديدة، كزّ وفرّ وفرّ وكزّ، واللعنات
المصوبية على كلِّ من الطرفين: بدأ برد الشتاء ينقشع، ولم يتجح تطاير
الفراشات البيضاء، ولا تفتح بعض الأزهار البرية على قارعة الطريق بأن يمنح
المدينة شيئاً من البهجة أو الجمال، فبدت زينة الربيع كبقعةٍ من الطلاء على
وجه موسم، تحاول أن تخفي تحتها قلباً ميتاً ووجهاً بلا ملامح .

في هذا الجو الثقيل المشبع بالحسرات على أيام مضت، والتطلع إلى
مستقبل مجهولٍ غائم ... رأيته ... لم يتغير كثيراً، إلا من يضع شعيرات فضيةٍ
لمرّت صدغه، نفس النظرة الهادئة، الأنف الأشمّ والعينان الضيقتان، لم يتغير
كثيراً.

لكن ما صعقتني كان الوحش الأسود الجاثم على كتفه، كان يرتدي بذلةً
عسكرية، ويحمل على كتفه بندقية، وعلى رصفه استقر رباطٌ .. أسود ..
أبيض .. أحمر .. وقبعت في وسط اللون الأبيض نجمتان خضراوان، تنظران
لي بسخريةٍ واستهزاء ...

نعم، هو يرتدي علم جند الأسود، هو أصبح من جند الأسود.

مرت الأيام متتابعةً متشابهة، ما بين انقطاع الاتصالات وانقطاع الكهرباء
وانقطاع المياه...

"- لا تقلقي هم في سبيلهم لقطع الهواء عنّا أيضاً" قالتها زميلي بسخريةٍ
قائلة، ثم استأنفت رداً على نظرتي المتسائلة

"- عندما سيستخدم السلاح الكيماوي."

إحدى المفردات الجديدة التي بدأنا نلوّكها تحت وطأة القلق والترقب، "السلاح
الكيماوي" كانت في البداية تُنطق بغضبٍ واستنكارٍ وتعجّب، و يعد عدة
مراتٍ رأينا فيها أثر ذلك السلاح العجيب على مناطق متكوبةٍ مختلفة، أدركنا
أثماً على الرّغم من قسوة تأثيرها إلا أنها ليست أخطر ما نخشاه .

لم أنس نشاطي الفيسبوكي، فكنت كلما سنحت لي الفرصة أنشر عباراتٍ
ساخطة:

" يلعن روحك يا حافظ "

" الحرية جاية جاية "

" الله معي الجيش الحر "

ما كانت إلا محاولاتٍ مني لتنفيس شحنة غضبٍ وحنق، وتأكيد على
انتمائي "للمعسكر المعارض" كما باتوا يسمونه مؤخراً، و كم كان يسليني
وصف البعض لي بالمجنونة .

أفكاراً كثيرة عصفت برأسي، و ما بين إحصار الذكريات و طوفان الأسئلة أحسست بقدماي لا تكادان تقويان على حملي، نبضات قلبي تسارعت بشكل جنوني.

بضعة خطوات فقط .. بضعة خطوات!

و بقوة جبارة أرغمت نفسي على أن تليس رداء الهدوء، حتى وصلت إلى شارع متفرع قريب، دلقت فيه بسرعة قبل أن تلحظني عيناه اللتان كانتا تفتشان بلا مبالاة في حقيبتي سيده مرت أمامه .

عمّ كان يبحث؟ عن أسلحة؟ عن فتيلة؟ أم عن قلبٍ جديدٍ يسحقه؟!

ما هي إلا خطوات حتى أحسستُ بركبتي تهاويان، دخلت إلى أقرب بناء و افترشت إحدى درجات سلمه، تأكدت من أن أحداً لا يشاطرنى خلوتي هذه، و أجهشت بالبكاء، لم أدركم بقيت على هذا الحال... دقائق ... ساعات ... كنت أغسل روعي المذبذبة بسيل من الدموع، أحسستُ بفيض من الاستسلام يسري في عروقي، وبالحياء تسرب من بين مسامي، هدأت فجأة كما انفجرت فجأة.

خرجت من البناء متابعاً طريقي، غني عن القول أنني اتخذت لي طريقاً مختلفاً لا يمر بالحاجز الذي يقف عليه .

شيئاً فشيئاً تمالكت نفسي، و انابتي نوبة حنق رهيبية، كيف أنهز هكذا؟ بهذه البساطة! بعد كل هذه السنوات! أنا! المرأة التي صارعت قسوة الحياة ببديها العاريتين، أنا التي خرجت منتصرة من كل المعارك النفسية التي دخلت فيها، كيف لي أن أحمل في ثنايا قلبي كل هذا الضعف!

أدركتُ بأن فجوة ضخمة تقع في داخلي، فجوة قد هربت منها مرةً لآني لم أهد التعامل معها، و ها قد حان الوقت! حان الوقت لخط حروف كلمة النهاية على واحدةٍ من أصعب قصص حياتي، قصتي مع سмир .

أخرجت من حقيبتي امرأة صغيرة مزخرفة بنقوش جميلة، مرصعة ببضعة أحجار لامعة مشكّلة على هيئة قلب، و تسللت لشفتي بسمّة و أنا أذكر كلماتها و هي تهديتها في عيد الأم

- "أحبك يا أحلى أمّ في الوجود، و إن كان هناك أمّ أحلى منك فأنا لا أريدها، لا أريد أمّاً غيركِ أنتي".

ذكراها كانت الترياق الذي احتجت له، ليزيدي قوة، ليزكريني بأنني قد وصلت إلى برّ الأمان في اللحظة التي حضنتُ فيه كَفها الصغيرة في يدي لأول مرة، ليزكريني بأنني قد أدركتُ مغزى وجودي بوجودها، أنا قوية اليوم، قوية .

فتحتُ المرأة الصغيرة و تأكدت من مسح أيّ أثر للدموع على وجهي، هذه المرة كانت عينيّ تشعان قوة و تحدي، رفعت رأسي بثقة و اعتداد، إستدرتُ على عقبي و عدتُ للمواجهة التي كنت قد هربتُ منها منذ إحدى عشرة سنة، اليوم ما عدتُ سهام الرقيقة كزهره ياسمين ضعيفة، أنا اليوم .. أم أمل! أحسستُ بقلبي يهتف بهدوء و حنان " أحبكِ يا أمل، يا ملاكي الحارس "

- بمجرد أن خرجتُ من الشارع الفرعيّ متجهةً نحو الحاجز لاحظت غيابَه .

أخذت أجولُ بعينيّ في كلّ مكانٍ على الحاجز، في بيت الحارس، خلف جبل الأكياس الرّمليّة الساترة من الرصاص، حتى أنني بدأت أنفحص أسطح الأبنية المجاورة، لكنني لم أجد له أيّ أثر! خطواتٍ تفصلني عن الحاجز ولا أراه! .. أتراني قد هيأت لي عيناها ما قد ظنته هو؟ أتراني توهمت وجوده بسبب رواسب نفسية عالقةٍ في روحي؟

رَنَاتٌ على جهازي المحمول قطعت سيل أفكاري، مددّت يدي لجيبي ورفعته بشكلٍ لا إراديٍّ أمامي لأنظر لرقم المتصل، لكن أصابعي كانت قد ضغطت على زر الأقفال وأنا أستخرجه من جيبي، لعنتُ الجيوب الضيّقة والهواتف المحمولة الغبية في سري، وأنا أبحث دون جدوى عن رقم المتصل بين المكالمات الفائتة ...

- "شوما تصوّرين؟"

أجفلي الصوت الخشن واللكنة الساحلية التي ارتبطت في لا وعي كل سوريّ بإحساسٍ خفيٍّ بالخطر، كان رجلاً قصيراً أمرداً بلحية سمراء كثّة، ينفخ أوداجه ويقف وقفة المعتد بنفسه، عينان حمراوان وأسنانٌ قد اصطبغت بلونٍ أصفر كالج، غالباً لإدمان صاحبها على شرب "المتي"، بذلته العسكرية تكبره قياساً حتى أنه اضطر أن يطوي بنطالها عدّة طياتٍ ليسمح ل " البيوط العسكري " خاصته أن يبرز من تحته ..

أجبتُه بأنّي لا أصدورُ شيئاً فسحب الجهاز من يدي وأخذ يقلّب فيه حتى وصل إلى ملفات الصور، وأخذ يقلّب فيها، صوري مع والدي، مع زميلاتي، صوري معها، والأهم صورها .. صور أمل ! من أنت! من أنت لتطلع على صورنا!

- "أنت من هذه المنطقة؟"

رمى كلماته بلا مبالاةٍ وقحة، وهو يتابع تأمله في خصوصياتي

- "نعم أنا من هنا .. وأنت؟"

أجبتُه بجرأة، لم يحرج جواباً، تجاهلني بشكلٍ كامل، غلى الدم في عروقي، كنتُ أدرك فداحة الاشتباك في جدالٍ لفظيٍّ سرعان ما يتحول لكارثة، كنت أعلم أنني لست على صفحات الفيس بوك، كنت أعلم بأنني في موقفٍ حقيقيٍّ أمام من يمكنه أن يلغي وجودي في ثواني، لا بل يمكنه أن يوصلني لمرحلةٍ أتمنى معها إلغاء وجودي! . لكنني لم أبالي بكل ذلك، وأنا أسحب جهازي من يده فائلاً:

- "لو سمحت هذه صورٌ شخصية!"

كشّر عن أنيابه ولس سلاحه بيده محاولةً منه لتذكّرتي بأنه في موقفٍ قوة، لم يكن بحاجةٍ لأن يذكّرني ...

- "هذا تفتيشٌ روتيني ."

- "لماذا تفتشني؟ أتراني إرهابياً خطراً؟! أنا ساكنةٌ في هذه المنطقة، عائدةٌ

إلى منزلي بأمان! أنت العنصر الوحيد الدخيل في الصورة!"

تحرك السلاح من كتفه إلى ذراعه، النظرة في عينيه باتت قاتمةً مخيفةً ..
- "هذه منطقة عسكرية، وأنا هنا لتأمينها من كل من أشتبهُ به؟"

لم أبالي بنظرتيه، ولا بفوهة البندقية التي وجهها إليّ، و هتفتُ بكل الغضب المتجمع في قلبي، و لكأنني أتقياً كل السواد والمعاناة التي فُرِضت علينا منذ قرّر سيدهم أن يلتصق بكرسيه ويحارب "المنثنين" و "ال الجرائيم"
- "منطقة عسكرية؟! منطقة عسكرية!؟"

أشرتُ بيدي بعصبيةٍ إلى أقرب نافذةٍ تقف خلفها سيدهُ مسنةً تراقب المشهد بفضول، و اكلمتُ بغضب ..

- "ما دام في هذا المنزل أناسٌ مديونون، ما دمتمُ أنا مدنيّة، ما دمتمُ أنت في مدينة، فما أنت في منطقةٍ عسكرية، وكلما فهمت هذا أسرع كلما كان أفضل لك ولنا، وكلما خُفّت معاناتنا ومعاناتك، حربيّ بك أن تعود إلى منطقتك العسكرية حيث يوجد من تعيد التعامل معهم، عُدّ لحيت تلتمي و اتركنا بأمان !

- "و لك شو ما تقولين إنني!؟"

كانت لكنته واضحةً جداً، مستفزةً جداً، متعاليةً جداً، رفعتُ رأسي عالياً، و على الزعم من انطلاق ألف صفارة إنذارٍ في أذني معلنةً عن ارتفاع ضغط شرابيبي، و على الرغم من الانتشار المكثف للأدريمالين في كل شبرٍ من جسمي، لكنني ما كنت لأعبأ بشيء، و تابعت هدهودٍ مصطنع، و نظرةً تقطر غضباً و كراهية :

- "أنتِ سألتني إن كنتُ من هنا، نعم أنا من هنا، و نعم أنت لست من هنا،
إذاً فماكانك ليس هنا!"

أفهم السلاح في كتفي و دفعني بقسوةٍ و الشر يقفز من عينيه

- "تعالى إلى الضابط ليرى ما قصتك!"

أحسست بأعصابه تتوترو بنظراته تزيف، أحسست بفخرٍ يليه بكل أفكاري، إن لم يفهم قبل اليوم فقد فهم الآن، نحن لا نطيقهم ! أحسستُ بيديه الشبثان بسلاحه أكثر و بجسمه يتشنج، لقد فقد السيطرة على أعصابه، لكن شيئاً لن يوقضي!

- "إذا أراد ضابطك أن يراني فليأت إليّ، لستُ أنا من يذهب إليه!"

لمحتُ بارقة جنونٍ تطوفُ في عينيه، وبدأتُ نطقُ من العرق البارد تسري على طول ظهري و أنا أرى عضلاته تنقلص منبهةً بعركةٍ عنيفةٍ قادمة، بدأت الدنيا بالاهتزاز أمامي، رسمتُ ضحكة تحديّ على وجهي، ألف صوتٍ في عقلي بصرخ "اعتذري .. "اهدأي" .. "اهربي" .. فرد قلبي المجنون " أنا سورية ... أنا حرة!"

في تلك اللحظة ألقى بيده على كتف الوحش الذي كان يستعد لاقتناصي؛ انحنى ليصل بقمه إلى مستوى أذن القبيح المرید و همس له ببضعة كلمات، لست ادري ماذا قال له، لكنه رماني بنظرةٍ ناريةٍ و بصق على الأرض و ابتعد بضعة خطواتٍ ووقف يراقب من بعيد.

- "ما زلت مجنونةً كما كنت!"

جاءني صوته كسلسيل ماءٍ باردٍ بعد تجريبي المجنونة، وعلى الرغم من أن صوته كان آخر صوتٍ أودَّ سماعه، لكن كان له وقع النغم على أذني، لا بد من أن أسعد بسماع صوته في موقفٍ كهذا فقد كتب لي عمرٌ جديد! استأنف مخترقاً صمتي ..

- "كنت أبحث عنك، فما أن لمحتك من بعيدٍ حتى اختفيتِ فجأةً! أين كنتِ؟"

قال هذا وهو يأخذ خطواتٍ واثقةٍ مبتعداً بها عن الحاجز مشيراً لي أن أصعبه ترددت لثواني، أأريد حقاً أن أمشي معه مجدداً؟ هو .. سمير.. الذي حفر في تاريخي سنين عداپ لا تُنسى وغيّر خريطة قلبي إلى الأبد! بهذه البساطة يشير لي وأتبعه؟! لكن نظرةً للحارس الواقف على بعد بضعة أمتار، اضطررتي لأن أحزم أمري بسرعة، أسرعرت بخطواتي وأنا ألحق به متاملةً منكبيه العريضين والبذلة العسكرية التي بالكاد تسع لهما، تلاحقت خطواتي حتى لحقت به وصررت أمشي بمحاذاته، أطرقت رأسي واختبأت خلف سورٍ منيعٍ من الصمت ...

قدماي كانتا تتحركان تلقائياً في إيقاعٍ صامتٍ مع حركة قدميه، وعلى الرغم من كل محاولاتِي المستميتة للبقاء على أرض الواقع إلا أن الذكريات كانت أقوى، عصفت بي وحملتني لمقاعد الجامعة ..

- "لو سمحت يا أنسة ... هل لي أن أستخدم دفتركِ؟"

وقبل أن أنبس ببنت شفة، كان قد فتح الصفحة الأولى وكتب رقمه ثم استدار نحو صاحبه

- "أجل القلم لازال فيه حبر، أوما لي ضاحكاً واتخذ خطوتين في سبيله للابتعاد قبل أن أبادره:

- "لو سمحت!" استدار مستغرباً

- "لقد نسيت بقعة حبرك!"

فصصت الورقة ووضعتها على الطاولة و سررتُ مبتعدةً وسط ضحكات زملائه وهمسات زميلاتي...

مع تلاشي صورة المقاعد ووجوه الأصحاب من ذاكرتي رفعتُ عيني و نظرت له، التوتور كان قد رسم على وجهه لوحةً لا تخطئها عيناي، و يطلُّ من عينيه شبح الذكريات ذاته الذي كان يفتصب روعي، بل كان يفتصب روح كلِّ منا، هاتان العينان السوداوان كانتا تموجان بالعواصف، والتردد.

عدتُ لإعصار ذكرياتي لأرى ذات العينين رائقتين كليلة صيف، تطلُّ منها نظرةٌ قويةٌ تشعُّ ثقةً وإقداماً، لن أنسى ما حبيت تلك النظرة المصممة مرسومةً كلوحةٍ إلهٍ إغريقيٍّ يحيط بها إطارٌ من الأهداب السميقة المقوسة ..

- "لو سمحت ... لو سمحت ... أنسة سهام!"

استوقفني وأنا أعبر خارجةً من محاضرةٍ متعبة، متجهةً للمكتبة لأرتب أوراقِي وأقكارِي، محققةً بالكثير من الدفاتر والكتب، استندرت متعظمة، من هذا الذي يناديني باسمي؟ نظرت له وأنا أقوس حاجتي باستنكار لم تتغير النظرة التي في عينيه بل ازدادت تصميماً وإن غزاها شيءٌ من الاستمتاع، هي قطعاً لعبة الرجال المفضلة منذ أقدم العصور ... الصيد!

- "اسمك سهام أليس كذلك؟"

وددت لو أعنفه، أزجره، "مالك و مال اسمي؟" كانت أول جملة وردت في خاطري، لكن شيئاً في عينيه كَبَل لساني تماماً و شكّ أفكاري، سحبت عيني من عينيه بصعوبة و أومات برأسي، بالكاد أتمكّن من التقاط أنفاسي، ما هذه النظرة؟! تابع لعبته بثقة و مهارة ..

- "لا يخفى عنك أنني معجبٌ بك، الجامعة كلها تعلم ذلك."

كنْتُ قد سمعت الكثير من الأحاديث الهامسة، تجمع بين اسمه و اسمي، و ما أن اقترب حتى تخفت الأحاديث و يحل محلها نظراتٌ مستطلعةٌ مترقبة، حملت لي صديقتي المقرية بضعة كلمات منها " يتابعك دوماً " " يسأل عنك في كل مكان " " يترك محاضراته لينتظر مرورك و أنت خارجة من محاضرتك " لم أكن لأرد على كل هذه الترهات، قد سمعتُ من هذه القمص الكثير، كلها كانت تنتهي بـفجعية و قلبٍ محطم، و علاوةً على هذا فأنا هنا لأتعلم، أتعلم فقط !

كانت عيناه تسرحان في وجهي و لكأنه يحاول أن يقتحم أفكاري و يستمع لأحاديث روعي، و حين عجز قرر أن يرمي بقنبيلته الأخيرة

- "الواقع أنني احبك!"

وقع تلك الكلمة كان أضخم من أن أتمكّن من تجاهله، فكل فتاة في الدنيا تعلم بهذه الكلمة بطريقة أو بأخرى، لكن التلقائية الصادمة و السرعة المبهولة التي رماها بها كانت أكثر من أن تحتمله أعصابي الباردة ..

تناثرت كتبي و أوراقني في كل مكان، و المشهد التالي كان مشهداً سيق و لمسه أدته في الف فيلم، و قرأتُ عنه في مليون روايةٍ و قصة، يدان تلتسان، ككتابٍ يقع، و قصة حبٍ تبدأ، كنت أتأقّف لتفاهة الفكرة، و أحسُّ ببلادة تكرارها، يوماً لم يكن لديّ وقتٌ للتأقّف، حبكٌ من نارٍ طاف على طول ذراعي، و امتدّ يهدوءٍ ليغزو قلبي، و عندما لمسّت شفتاه يدي، تضرع قلبي، و رفع كل رايات الاستسلام .

سحبت نفسي عنوةً من سحابة أفكاري، نعم قصتنا كانت تقليديةً في بدايتها، تقليديةً في تفاصيلها، تقليديةً حتى في نهايتها ... ككل قصة على الفتاة أن تندها تحت رماد النسيان، لماذا كان له أن يعود إلى حياتي؟ و لماذا الآن؟ و هكذا !! أخلتُ عيني في زنه، الزئى الذي تعودت على مدار عامٍ كاملٍ أن أزدريه، و سؤالٌ ضخمٌ يبتلع كل حواسي رويداً رويداً ... لماذا!؟

ليس فقط لأنني كنت أحاول جاهدةً أن أهرب من طوفان الآمي، ليس فقط لأن الذكريات السعيدة تصبح مرتعاً للألم عندما يُطبع عليها كلمة "ماضي"، ليس فقط لأنني كنتُ أحاول أن أحافظ على رباطة جأشي أمامه، بل لأن ما قد تنأى إلى مسامعي كان أحبُّ الأصوات إلى قلبي، صوت ضحكات الأطفال ...

الجوّ كان مشمساً زاهياً، والحديقة كانت تضيئُ بالأطفال، بكرايمهم و زلاجاتهم و دماهم و أغانيهم و أصواتهم، تتراقص الفراشات البيضاء حولهم بمرح زاه، فتنبعها أكفهم الصغيرة بشوق، و تشعُّ ثيابهم الملونة جمالاً لترسم لوحةً مثالية للحياة .

اللعبة المفضلة للفتيان، " الدبابة " امتلأت بجنرات الحرب الصغار، يتسلقون و يقودون معارك وهمية رسمها خيالهم الغصيب، استقوا شيئاً من تفاصيلها من واقع يقرع مسامعهم يومياً، أو من قصص الأخبار على شاشات التلفاز القائمة، لا مكان للقلق في وجوههم البرينة، سعادةً خالصةً كانت تقطر من الأحلام الفتية .

أما الفتيات فكانت الأرجوحة زميلتهن منذ الأزل، يمتلونها و يدفعن بأرجلهن الصغيرة في الفضاء، محلقات بحرية و القهقهات تنائر من حناجرهم، فيما تتراقص الضفائر السوداء، الخصلات الشقراء، و الأشرطة الملونة وراءهم في رحلةٍ لاهثة .

قطعاً هي اللعبة المفضلة لدى أميرتي الصغيرة، تمنيتُ لو أنّها كانت معي للستمع بهذا الجوّ الجميل، و لتفمرني بضحكاتها و صرخاتها و هي تجول في أرجاء الحديقة بلهفة، محاولةً إفراغ شيءٍ من طاقات الطفولة، طاقات لا تتمكن كل أبواق الحرب و الاتها من أن تنال منها !

طبعاً لو كانت معي ما كنت لأراه اليوم، فهي باتت ترفض المرور بأي حاجز، كنا لنسير عوضاً عن ذلك في الطريق الذي يحولها أن تدعوه " طريق الكلاب " و هي تسميةٌ أتت من كلبين بوليسيين أسودين، قابعين على جانبي الشارع ليحميا أحد مراكزهم اللعينة، الثياب العسكرية المدججة بالأسلحة كانت تزعجها أكثر من كلبين يفوقهما كلٌّ منهما طولاً، ردّت أمام حيرتي يوماً بأن وحشية الكلاب كانت بالنسبة لها منطقيةً و مفهومةً على عكس وحشية البشر، و بأن الأسنان و الأنياب لم يكونا ليخيفانها أكثر من الأسلحة .

فتاةٌ حكيمة !

طاف السؤال في ذهني مرةً أخرى، و لم أتمكن من كظمه، استدرت نحوه و تقيأت السؤال بسرعة ..

- " لماذا !؟ "

كان غارقاً مثلي في عوالم لا يدركها إله، يكلّله صمّت حزين، و تتراقص في عينيه السوداوين مشاعر طال نسيانها، رفع نحوّي نظراته الناهية و لكنانها قد خرج لتهو من قعرهاوية عميقة ...

- " عذراً ؟ "

أشرتُ لرباط يده والنجمتين الخضراوين الأثمتين، كررت سؤالاً مجدداً:

"لماذا؟"

هزأه علامة على الفهم، ثم رفع نظراته للأفق البعيد ..

- "أنتِ معارضةٌ أليس كذلك؟ لم أتوقع منك غير ذلك، شخصٌ بعنفوانك، طبيبتك، بالإضافة إلى طبيعتك الثورية...." صمّت لثوابٍ وتابع: "طبعاً معارضة."

- "وأنت؟"

- أنا....

كنا قد أصبحنا داخل الحديقة، أشار لي لأجلس على أحد مقاعدها، و جلس إلى جانبي محافظاً على مسافةٍ مريحة ..

- أنا سفينةٌ تأخذها الرياح حيث تشاء، سمّيتها صدفة، سمّيتها قدراً، قد كتبت لي أن أرتدي هذا الزي في هذا الوقت ..

- "لم أفهم.."

- "الخدمة العسكرية"

- "هذا ليس مبرراً!" قلتُ بعصبية

- "ليست جريمةٌ لأبررها." أجابني بكبرياء

- "أوافقُ أنتَ على ما يفعلون؟!"

- "ليس الموضوع بهذه البساطة ... ليس الموضوع بهذه البساطة."

كان قد ركّز عينيه على نقطةٍ وراء سور الحديقة، لم أهتم كثيراً لمتابعتها وهاجمته قائلةً:

- "يقتلون، يسرقون، يقصفون، يغتصبون! أعمى أنت! ألا ترى! دكّوا مدناً بحالها بحجة مسلحين، وما سألح المسلحين إلاهم وما أدخلنا في معمعة الحرب إلا جشعهم وطمعهم وغرورهم، يبيدون قرى كاملة لينظفوها ممن لا يتبع ملتهم! العالم كله أدرك الجنون والوحشية التي نتعرض لها منهم وما أنت إلا ذرة غبارٍ في جدارٍ يحتمون به، أنت وقوّدٌ لحربٍ ضد شعبيك، ضد سوريا، ضد حلب!"

تهدج صوتي وأنا أذكر اسم مدينتي الحبيبة، لم ينبس ببنت شفة، وعضاً عن أن يرد، أمسك بيدي وسحبني ناحية سور الحديقة وعيناه ما زالتا مثبتتين على النقطة ذاتها، أحسستُ بكل نقطة دمٍ في جسمي تصعد إلى وجنتي وأذني، لمسته أحرقت كل ذرةٍ من خلايا يدي، أقلتها بسرعةٍ كما أمسكها بسرعة، وأشار لبرني شيئاً، كان الحاجز نفسه يبدو واضحاً من هذا المكان، يقف عليه الحارس الذي أنقذني منه، بقامته القصيرة، بلحيته الكثة، بسلاحه الغادر، لكن .. على وجهه تراءى لي شبح ابتسامته، ابتسامته حنونة! كان يمدّ يده معيداً كرةً شاردةً لأحد الأطفال، ويرتّب على رأسه، فيما يبتسم الطفل بعرفانٍ وفخر، ومن ثم يجري مبتعداً، لم أدريّم استفزني المشهد، زاد احمرار وجهي لسببٍ مختلف عن السبب الذي دفع الدم لوجنتي منذ دقائق، كنت غاضبة! أشحّت بوجهي بعناد، فتحرك في وقفته حتى واجهني وقال لي بصوت حازم هادئ:

- "الدنيا يا سهام ليست كمسلسلات الأطفال، لازلت نتابعينها أليس كذلك ؟"

رفعت حاجبي باستنكار ..

- "بلاكهرياء ؟!"

- "تفهمين ما أقصد !" أكمل بهدوءٍ وعيناها تفوصان في عيني كأنما لينومني مغناطيسياً .. "ليست الدنيا مطليةً بالأبيض والأسود فحسب، بل على العكس، لا يحتلّ هذان اللونان إلّا أقل من القليل، في حين تملأ المساحات الرمادية التي ترفضين الاعتراف بها كل شيء، في هذه المساحات أعيش أنا."

- "لا يهمني أين تعيش! لا يهمني لونه الرمادي، لو كنتُ أنا رجلاً ل ..."

قاطعتي بثقة

- "لكانت حيرتك أكبر من حيرتي."

حركت رأسي بالنفي، وأشرتُ لأطفال يجرون بسعادةٍ أمامنا

- "لكنّني دافعتُ عنهم."

- "أنا أدا فعنهم !"

- "لا! أنت تدافع عنه !" أومات نحو بيت قائد الشرطة والصورة

الكهنية التي تتصدر جداره، صورة المجرم الأكبر في بلدي، من يسمونه رئيساً ليرتكبوا باسمه أفظع المجازر والأهوال، صورة بشار الأسد ..

هز رأسه باستسلام ...

- "لم أتوقع منك أن تفهمي، أنت لازلت طفلة، لم تتغيري !"

نظرتُ له بتحدٍ سافر

- "وأنت أيضاً لم تتغيري !"

اطرق رأسه، فعرفت بأنه أدرك ما كنت أعني، أحسست بسحابةٍ من الكآبة تغمرني، بات الجو بيننا متوتراً ثقيلاً.

أنقذتني رناتٌ على هاتفي المحمول، رددتُ بسرعة فأتاني صوتها الملائكي

- "ماما أحضرتُ لي الدفتر؟"

- "نعم يا حبيبتي طبعاً."

- "لا تتأخري أرجوكِ قلقت عليك."

- "لا تقلقي يا غاليتي سأعود بعد قليل."

- "حسناً يا ماما، أحبك." وأرسلتُ لي قبلةً رقيقةً مثلها، عبرت الأثير بسرعة، لتستقر في قلبي وترسم على وجهي ابتسامةً سعيدة، أنهيت المكالمة واستدرت نحو..

- "يجب أن أعود، لقد تأخرت على ابنتي."

نظراته اتجهت نحو بنصري الأيسر الحروسائي بلهفة ..

- "تزوجتِ؟"

- "وطلقت."

لمحت نظرة سعادة في عينيه أزعجتني، تجاهلها وسألته السؤال الروتيني،
أولعله لم يكن روتينياً ..

- "وأنت؟"

هز رأسه نفيًا، لم أدرك سبب ذلك الشعور السخيف في قلبي، تسارعت
نبضاتي، بادرتُ بالوقوف بسرعة ..

- "لا داعي لأن توصلني، لا بد من أنك تأخرت عليهم."

نطقتُ الكلمة الأخيرة باستهزاء، لم يلق بالأ إلىه وسحب مني هاتفي قبل
أن أعترض وضغط بضعة أرقام عليه، ثوانٍ وسمعتُ زينياً أتياً من جيبي،
أعاد لي الهاتف وابتساماً عريضةً تملأ وجهه، وعلى عينيه نظرة عرفها على
الفور .

- "الحمد لله الهاتف يعمل !"

دون كلمة واحدة، استدردتُ على عقبي وابتعدتُ عنه بسرعة و أنا احس
بنظراته تخترق ظهري، قاومت كل رغبةٍ لدي بأن ألتفت نحوه مودعةً، و
أقنعت نفسي بأن دقائق قلبي ما كانت إلا بسبب سرعة خطواتي ولياقتي
البدينية الضعيفة .

(٧)

استيقظت صباح اليوم التالي على صوتٍ لطالما حنّيت إليه، صوت زقزقة
العصافير .

لم أصدق أذني، فقفزت من سريري، رميت شالاً على رأسي وأزحت الستارة
المترافضة على نافذتي، إنه حقاً صوت العصافير ترح بين الأشجار بحيويةٍ و
نشاط، تتقاذف من غصنٍ إلى غصن، مداعبةً بصرخاتها البرينة شغاف قلبي،
أغمضتُ عيني في محاولةٍ لإلغاء كل حواسي الأخرى، لأغرق روحي في
السيمفونية العذبة، كيف عادت فجأة؟ كيف اختفت ومتى؟! شيءٌ في داخلي
صرخ بأنّها كانت قد اختفت منذ زمنٍ طويلٍ قبل الحرب .

أفسحتُ سحابةً عابرةً للطريق للشمس لتغمرنني، مداعبةً وجهي بأشعتها
الرقيقية، نسمة هواء اجتاحت الغرفة مزبحة شالي، عابثةً بخصلات شعري
الطويل بمجون، ابتعدتُ عن النافذة عاتبةً على النسمة إفسادها متعبي،
لكنني عذرتها، لا بد أنّها قد هربت من أبخرة البارود وقسوة الحرائق و
الدخان، استلقيت مجدداً على سريري، اليوم عطلة، بإمكانني الاسترخاء قليلاً؛
أخذت أراقب رقصة ستانري مع النسيم اللعوب في حين قرر خيال سمير أن
يكف عن دور المراقب لأفكاري، فبدأ يتغلغل رويداً رويداً في تلافيف خيالي،
كتفاه العريضان، نظراته الشاردة، البسمة على وجهه وهو يسلمني هاتفي،
عيناه السوداوان ... عيناه السوداوان .. عيناه السوداوان ! احتلنا خلال
دقائق كل مساحات خيالي، نعم لا زالت الذكريات القديمة قابضةً في الزاوية
هناك، كصندوقٍ أسود يغريك بأن تفتحه مفسحاً الطريق لكل الآلام و
الشجون، لكن ذكرى البارحة أبت إلا أن ترسم على شفطي بسمةً رقيقة،
٤٥

أغمضت عيني وغرقت في بحر أسود غامض، سبق لي أن سررت أغواره و
أدمنت الأحساس اللذيذ بالذوبان فيه .

خطواتها الخفيفة العارية وهي تعدو نحوي صفقت على أرض غرقي
كأجنحة ملاكٍ رقيق، عانقتني لتمنحي قبلة الصباح، حضنتها وسحبها مي
للسرير، أراحت رأسها الصغير على ذراعي وتناثر شعرها البيتي على أغطيبي
البيضاء في سريالية مبدعة، أما عيناها فقد دفعتا بعينيه نحو الظل، فعندما
تُشِع أنوار أميرتي تخفَّت كل الأضواء الأخرى، مدَّت ذراعها الصغيرة لتحيط
برقبتي، مسخت بكفها الصغير على شعري، " أحبك ماما " تمتمت بدلالٍ ثم
قفزت عن السرير وطارَتْ نحو العالَم، نهضت من تكاسلي وقمت لأحضرن لها
طعام الفطور، وعلى الفطور طرحتُ الفكرة ..

- " ما رأيك بزيارة للحديقة ؟ "

كنتُ أشعر داخلياً بالذنب لزيارة الحديقة البارحة بدونها، وكان في قلبي
فسحة من الحسد والغيرة من ضحكات الأطفال و مرحهم فيما كانت طفلي
قابعة في المنزل بهدوء، قررتُ أن أعوضها بزيارة ممتعة تكسر بها رتابة الأيام
المتكررة وألم الانتظار الطويل لنهاية حربٍ لا تنتهي .

ربما ... ربما في ذاتي الدفينة، كانت لدي دوافعٍ أخرى، ارتسمت على شفتي
ابتسامة خبيثة، استقيتها من ظلٍ بعينين سوداوين كان يختئ في زاوية
أفكاري.

على الطريق كانت تقفز بحبوبةٍ ونشاط، و لكأنها تنتقم من شهرٍ من
الهدوء والحكمة السابقة لسنها، وكأنما لتفرغ شحنة مهولة من الطفولة

التي طال حبسها بداخلها، كانت تلاحق الفراشات وهي تصرخ بحماسة،
لستعجل خطواتي الهادئة تارةً و تحجل تارةً أخرى، حتى أتتها أخذت تقفز
كرافصةً باليه على رجلٍ واحدةٍ في تعبيرٍ راقصٍ عن شوقها للعب الحرِّ في
الهواء الطلق، كانت السعادة تشرق من كل ملامحها الطفولية لتزيد اليوم
إشراقاً وبهجة .

وصلنا للحديقة ركضتُ نحو الأرجوحة، لعبتها المفضلة فأسعفها ووصلنا
الباكر و عدم ازدحام المكان بالوصول إلى واحدةٍ فارغة على الفور، جلستُ
فيها وناديتي لتربني أتتها قد تعلمت كيف تؤرجح نفسها دونما مساعدة، أما أنا
فقد اتجهت إلى مقعد البارحة نفسه و جلست عليه بهدوء، أعلم أن ما أقوم
به هو الجنون بعينه، لكنني اليوم في أجازة، وقد قررت منح عقلي هو الآخر
أجازةً ولولبوم واحد.

جالت عيناها على طول الحاجز فلم أره، لماذا يختفي في كل مرة أبحت عنه
فها !؟ فكرت بغضبٍ طفولي، فكرت بأن أتصل به، أخرجت الهاتف من جيبي،
رقمه هو آخر رقم تم الاتصال به، لكن عقلي تشبَّت بي ورفض أن يتركني لتزوة
جنوني، زفرتُ متأففةً وأنا أعيد الهاتف لحقيبتي، وغرقت في ذكرياتٍ حرصت
على أن أختارها مشرقاً مبهجةً لتتناسب مع حالتي المزاجية، ومع جو اليوم
الجميل .

- " لقد لمحتك تكلم سلوى البارحة . " قلتُ وأنا أبرم شفتي السفلى
بطفولةٍ مطلقة " ماذا تريد منها ؟ "

- " كانت تسأل عن موعد المحاضرة . " أجابني والمتعة تطلُّ من عينيه
السوداوين.

- "ولم تجد غيرك لنسأله؟" وضعت يدي على خصري في تحدي وأنا
أسأله باتهام.

علت ضحكاته ثم اقترب مني وقرصني من خدي ..

- "إكبري قليلاً!"

أبعدت يده وقلت في دلالي ظاهر:

- "لا! كنت تلتهمها بعينيك، تراها أعجبتك؟"

نظرت إلي مباشرة وأغرقتني في بحر عينيه السوداوين

- "من ذا الذي ينظر للحلي ومعها الذهب؟"

قرب رأسه من رأسي في محاولة لاقتناص شفتي، دفعت صدره بيدي و
عدوت مبتعدة.

تألفت الابتسامة على وجهي وأنا أذكر نظرات زماننا وهي تلاحقنا بحسد،
كانوا يسموننا الثنائي المثالي! كنا نضحك كثيراً، نمرح كثيراً وحبب كل منا
الأخر .. أكثر من الكثير!

- "أحبك لدرجة مبالغ فيها! أحبك أكثر مما ينبغي يا سمير!"

- "لا حدود للحب يا حبيبي، امنحيني حبك كاملاً، أغرقني معي في بحر
جنوني، فحبك هو ما يبقيني حياً في هذه الدنيا."

بسمه حزينة ارتسمت على وجهي ..

- "كان الحكايات الجميلة كانت نهاياتها حزينة، روميو وجوليت، عادة
الكاميليا، عنترين شداد و عيلة، قيس وليلى .. يُشبهوننا بهم، فماذا أفعل
بوماً إن خسرتك؟! لن اتمكن من العيش بعدك يوماً واحداً!"

- "تحمسيني مجنوناً لأبتعد عنك؟ أنا .. أنتفص .. اسمك!"

قمّت من على مقعدي، لوحتُ لأمل، فردت عليّ ضاحكةً وهي تطير في
الهواء على أرجوحتها، كانت سعيدة جداً، ابتسمت بوهن، اقتربت من السور،
باحثةً من جديد ... يا ترى أين هو؟ لماذا يرحل دوماً في الأوقات الغاطنة!

بدأت أرصاد قلبي تعلن عن اقتراب غيوم ماطرة، زلزل سماء ذكرياتي هزيم
الرعد

- "أنا أسف!"

ومضة برقي سريعة ألقت بنورها على المشهد، نظرة حزينة، كلامٌ كثيرٌ غير
مفهوم ... ارتفع هزيم الرعد مجدداً ..

- "أنا أسف!"

بدأ المطر بالتساقط على أرض أحلامي، انطقات فناديل ضحكاتي ونعق
غرابٍ ناعياً حباً يحتضر.

أوقدتُ شمعةً من ألم لأراقب المشهد الحزين يهدوء ...

- "لن أستطيع، أنا أسف" حول نظرتي للفسقية الحجرية، يتراقص الماء
فها كدموع ذاتي الكسيرة، كان الألم يفيض من عينيه ليزيدني الماء على ألمي.

صوت ألحان القانون الهادئة وأشعة الشمس المنحدرة من السقف
المفروح العالي لبيت حلبي قديم، الأعمدة الخشبية المطعمة بالصندف و
النفوس البارزة على الحجر الأبيض، شجرة البرتقال الوارفة، كلها شحبت و
فقدت رونقها وهو ينكس رأسه بانتهزام ..

- "أنا آسف! "

سَدَّ حساب مشروباتنا وسط ذهولي، أوما لي براسه، ورحل! ..

انتهى الزمن، انتهت الحياة بأسرها! لقد رحل!

لم أدري كم من الوقت ظللت ساكنة في ذهول، لكنني حين أفقتُ وجدتُ
وجهاً مبللاً بالدموع، ومقهي كاملاً يرمقني بنظراتٍ من الشفقة الفاتلة، وددتُ
لو أصفع كلاً منهم كفاً، لكنني اكتضيت بجلد ذاتي بسياطٍ من كراهية، و
الهروب بسرعة .

أمسكت بحقيبيتي ... عوضاً عن يده، وأخذت أجري، نعم أخذت أجري و
أجري وأجري بين الأزقة القديمة، لكان الطرقات والأزقة تلك كانت مهينةً
للهرب من عدوٍ خطير، أما أنا فكان عدوي هو نفسي، كنت أهرب من نفسي و
حاضري و من كل شيء، في الواقع ... لم أكن أدري مم كنت أهرب، كنت أهرب
فحسب،

جريت حتى أنهكت قواي، خررتُ على ركبتي راکعةً في زفاتي جانبي، وضعت
يدي على فمي لأكنتم بصعوبةٍ نشيجاً كان هز جسمي بعنف: لكم لعنتُ قلبي و
حبي، لكم لعنت طفولتي وبراءتي، لكنني لعنته أكثر! مرت دقائق، ربما

- "لماذا؟! ما الذي حدث؟"

- "مهما شرحتُ لك لن تفهمي!"

- "قصرْتُ في شيء؟ ضايقتك؟ أهي غيرتي المجنونة؟"

- "لا يا حبيبي! لا!..." أمسك بيدي بحب كأنما ليدي بكلمات حبه
للمرة الأولى، لكن وقع الكلمات كان مختلفاً

- "أنت أجمل وأرق ملاك في الوجود، أنت أروع إنسان عرفته في حياتي،
لكن!"

- "لكن ماذا! بالله عليك! أخبرني ماذا؟ ماذا أفعل؟" غالبتُ دموعي،
خنقتني الغصّة فخرج صوتي جريحاً...

- "لا تتركني هكذا!"

كنتُ على استعدادٍ لأحارب الدنيا بأسرها، كنت على استعدادٍ لأي شيء
لأبقى معه، فقط لو يقول لي!

فاضت دمعاً من عاصفة ذكرياتي فتدحرجت على وجنتي، مسحتها بسرعة،
نظرت لأمل، حمداً لله لم تكن تنظر لي، كانت مشغولةً بالتعرف على صديقةٍ
جديدة.

ومض برق الذكريات مجدداً

"- لا ترحل .. أرجوك!"

ساعات، للمث بعدها شتات نفسي، أخرجت مندبلاً مسحت به آثار جرمته
من على وجهي وخرجت من الزقاق جسداً تم وأد روحه بنجاح .

لم أفهم يوماً لمَ رحل، لا يهمني لمَ رحل ! لكن رحيله دفعني لكره ذاتي
سينياً طوال، كرة استغلّه الكثيرون ضدي أسوأ استغلال، و لم يوقظ ذاتي
الكسيرة إلا أولى شرارات الربيع العربي، فكرة الثورة لم تخص الأنظمة
الديكتاتورية فحسب، الثورة كانت ثورةً على الظلم في أيّ مكان، فثرت على
ظلمي لنفسي، نبشت قبر روجي وعانقتها وقررت أن أعود أنا .. أنا مهما حدث،
من كان في حياتي حينها لم يكن أهلاً للموقف، لم يكن يوماً أهلاً للموقف،
فرحبت برحيلي حاملةً معي طفلي و ذاتي، لأبني دولة سهام من جديد ...

ألقيت نظرةً على الحاجز ... طبعاً هو ليس هنا ! .

- "أمل حبيبي، لقد حان وقت العودة للمنزل".

تبعني على الرغم من تأفها، صالحتها بكيس كبير من الحلوى الملونة
فعدت الابتسامة لوجهها الجميل؛ لا! لن نُهزم روجي مجدداً و معي أمل!
زرعتُ بسمتها البسمة في روجي، انقشعت سحب الدموع وأشرقت شمس
أميرتي من جديد، ابتسمت وحضنت يدها الصغيرة طوال طريق عودتنا إلى
المنزل .

هديةً جديدةً أضيفت إلى قائمة معاناتنا اليومية، تزاها في كبد السماء
 المسكعةً ببرود قاتل، أزينها يغزو مسمعيك باستفزازٍ كذبابيةٍ عملاقة، شيءٌ ما
 ال داخلك يغريك بأن تحاول رفع يدك للسماء في محاولةٍ يائسةٍ لمسحقتها بين
 إصبعيك، فتعود لك أصابعك خاويةً فيما تزداد هي قريباً و يعلو أزينها، فقط
 لتعلمك، كم أنت ضئيلٌ في هذه الحياة!

مرّ يومان على لقائي به، كنت قد تخلّيت نهائياً عن فكرة الاتصال به،
 فدررت ألا أعطيه فرصةً جديدةً لينبذني مرةً أخرى، لكنني على الرغم من
 إصراري على قراري إلا أنني كنت أستفيق من شرودي لأجد نفسي أحملق في
 هاتفني بحقبي و غضب، كنت أسمع صوت قلبي يعتفه و يلومه على صمته
 المطلق، راجياً إياه أن يرن، معلناً بأن لقائنا كان أكثر من مجرد صدفةٍ عابرة،
 على كل حالٍ لم تكن الآلة المسكينة لتستمع إلى مناجاة قلبي، كانت مستمرةً
 بالركون هادئةً إلى متضدتي مغلفةً بصمتها المطلق .

ربما التقطتُ أمل أيضاً عدوى السكون مني و من هاتفني، ربما يعود ذلك
 لقرب موعد الامتحانات المدرسية و انهماكها المبالغ به في دروسها، حتى قبيلاتها
 كانت تمنحني لي بسرعةٍ و صمت، لتعود إلى أوراقها و كراساتها .

أما أنا فكانت أفكاري دائماً تدور حوله، كانت أفكاراً مرةً الطعم، تقتل في
 نفسي أيّ لذةٍ للحياة، إن كان لا زال فيها لذة!

كنت مغرقةً في كآبتي، و على الهامش كنت أستمع لأطراف نقاشي بدأ يأخذ
 شكل الجدال بين أبي و صغيرتي حول طريقة كتابة حرف الطاء، و كما دوماً في
 ٥٥

لحظة واحدة تموت النزاعات الصغيرة وتختفي أصوات الاحتجاج، ترقص أقدامها الصغيرة في أرجاء المنزل وصدى ضحكاتها يلحق بها من غرفة لغرفة، إنها لحظة عودة التيار الكهربائي، كانت في كل مرة تُشعل كل أنوار المنزل، كأنما لتعلن للعالم بأسرها أن " لدينا تيار كهربائي " .

كانت فرصة رائعة لي لأهرب من أفكارى القاتمة، نشاطي الفيس بوكي كان ليكون الملاذ الأخير من الحمم البركانية المحترمة تحت رماد هدوني المصطنع .

بدأت موجة إبحارٍ جديدةٍ في عالمي الافتراضي الآمن .

البياضا ... القصير .. حزب " اللات " .. رفع حظر الأسلحة .. الحشد في حلب و حماة \ طبعاً فهما معقل الطائفة السنية في سوريا \ حرب أهلية .. حرب طائفية .. المزيد من الشهداء ..

أخذتُ أنتقل بين الأخبار الجديدة القديمة، متصفحاً صوراً اعتادتها عيني، طفلٌ يبكي أباه، أمٌ تحاول الاستماع لنبض طفلٍ قد رحل، جثثٌ كثيرةٌ أغلها لأطفال، دماءٌ.. دماءٌ.. دماءٌ في كل مكان، لمحتُ صورةً لجدار بيتٍ دكتته قذيفةٌ غادرة، و على الجدار رسم أحدهم وردةٌ و كتب إلى جانبها: " لن يموت الأمل " أعجبتني الصورة، نشرتها على صفحتي الشخصية، لكن جرعة الأمل الضعيفة فيها سرعان ما انتقلت من طور الاحتضار إلى العدم، في مواجهة إحساسي العارم بالقمامة والتلذذ .

كنتُ مجرد ذرة رمل في ساعةٍ رمليّةٍ ضخمة، أراقب من وراء الزجاج نيران الجشع تنطابح السننها بجنون متصاعد، لتلتهم كل شيء، فيما أقترب يوماً بعد يوم من حافة الانهيار، لا أملك إلا أن أنتظر بيأسٍ قدوم من يأتي ليحطم

زجاج الساعة و يحرني أنا و كل ذرات الرمل الأخرى، في وطنٍ بات فيه الموت .. يوماً على جباه الجميع .

إنظار الموت .. أصعب من الموت نفسه .

سندوق محادثةٍ انفتح تلقائياً، كان ذلك خالي ياسر .

خالي ياسر كان مهندساً لامعاً، تخرّج من الأوائل على دفعته، ففرضت عليه الشؤون الأسيديّة ثلاث سنواتٍ من الخدمة الإلزامية، قطعاً! فعبقريةً كهذه شطراً إن لم تكن تحت سيطرتهم، فكان أن تقرر كبنته، وتم تعيينه في إدارة شؤون الأمراض العقلية .

و ككل شابٍ في بلدي قرر أن يدفن أحلامه وطموحاته و يقبل بما " قسمه الله له "؛ بعد مدة، بدأت المشاكل تطوف على السطح، فقد رفض أن يصبح رسماً في آلة فسّادٍ صنعت لدقن كل من لا مكان له في مخططاتهم، لم يحتمل رؤية عباقرةٍ يوصمون بالجنون، و عقلاء يقضون عمرهم حبسيسي المصحّ لمجرد رفضهم لتنفيذ رغباتٍ جشعة، بدأ بالكلام، ثم توقف فجأة، بعد زيارةٍ من شخصيةٍ ضخمةٍ في عالم الأعمال لأبي، عرفت لاحقاً بأن الرجل جاء ليبلغ أبي جملةً واحدة، " ابن حموك لن يكلفني أكثر من رصاصةٍ واحدة " .

خبأ خالي صمته في حقيبةٍ كبيرة، حملها و سافر إلى إحدى دول الخليج مندوباً للمبيعات، و تكفلت أوراق البنكنوت بإنهاء الخدمة الإلزامية في ستة شهور .

بعد أعوام عاد خالي بحقيبةٍ أكبر، محملاً بالكثير من الهدايا و القصص ..

- "ألا تتعرضون للتمييز العنصري هناك ؟"

رد بضحكة ساخرة كبيرة، لم أفهمها يوماً، اليوم فهمتها بعد سنين طوال، وأنا أرى الأحزاب العنصرية تحشد لحرب ضروس في بلدي، متناقسة في دعم نظام مجرم يعارب شعباً كاملاً ... نعم اليوم فهمت ضحكته، والتوت شفقتي في ضحكة مشابهة فيما كنت أردّ عليه التحيات المعتادة والدعوات القلبية بـ "انفراج الأزمة"

- "سهام .."

- "؟؟"

- "لماذا أنتم صابرون على هذا الوضع؟"

- "كما يصبر غيرنا، ليس ذلك بالأمر العسير، الحمد لله ظرفنا أفضل من غيرنا بكثير."

- "لكن لديكم خيار آخر"

كنت أعرف ما يرمي إليه، فقد تكررت محاولاته في إقناعنا بالسفر هرباً من قدر مجهول، أو ضيقة أشد، أجبته الإجابة المعهودة

- "السفر مرفوضٌ عندي نهائياً يا خال، تعلم ذلك جيداً."

- "لماذا يا ابنتي؟ تعرفين جيداً بأن بيتي مفتوح لكم، والدول كلها تقدم كافة أنواع المعونات والتسهيلات و...."

- "لأصبح لاجئة؟"

"مؤقتاً حتى تنتهي الحرب."

"ما أظن ما علل لاجئوا فلسطين أنفسهم به مختلفٌ كثيراً عما ذكرت"

"سوريا ليست فلسطين."

- "نعم أعلم ذلك، لكنني لن أترك بلدي."

- "هذا جنون! ماذا ستسفيد بلك منك ومن مكوثك فيها؟! مهما كان"

ما تفعلينه هناك تستطيعين القيام به هنا."

- "لا يا خال، هذه بلدي ... بلدي أنا وليس بلدهم، لن أتركها لهم."

- "يا ابنتي! .."

همٌ بكتابة شيء ما، أعلمني بذلك القلم الافتراضي يرقص على الشاشة معلناً انشغال الطرف الآخر في المحادثة بالكتابة، لكنه تراجع عما كتب من كلمات، مرت بضعة دقائق صامتة، أكد لي بعدها مجدداً:

- "خذوا حذرکم، وإن احسست في أي وقت ..."

أكملتُ الجملة عنه موفرةً على نفسي المزيد من الضغط ..

- "إن أحسستُ بخطر سأتي يا خال، ولو قررنا السفر قطعاً سنأتي

إليك، نعرف أن لنا ظهراً نعتمد عليه، كيف حال جدتي وزوجك والأطفال؟ ..."

تابعْتُ بعدها بعديتُ روتيني عن الصحة و المدارس و الأطفال.. انتهي بسرعة و عدت للتصفح من جديد، وكلمةً ضخمةً أكبر من محيط الألم تطرق جدران جمجمتي برتابة موجعة "لاحيّ سوري"

- "أخي المسلم، ساعد أخواتك في سوريا، فهن يتعرضن لكافة أنواع الانتهاك والإذلال، ساعدهن واحمهن، أنا شخصياً ساتزوج اثنتين."

كان مقطوعاً من الفيديو بثه أحد الأصدقاء معلماً بالكثير من إشارات التعجب ...

لم أصدق عيني وأنا أرى الشيخ ذو اللحية البيضاء يتشدد بكلماته تلك بوقاحة سافرة على شاشة قناة "إسلامية".

يا له من زمن، يجاهد فيه أنصاف الرجال بصلبهم !

شعرت برغبة في البكاء، أنهيت تجوالي الكتيب بسرعة و جلست لدقائقي محملقة في شاشة حاسوبي الفارغة ... موسيقى؟ ربما تحسن الموسيقى مزاجي، فانا لم أسمع سوى الأغاني الوطنية منذ زمن طويل بحق، قلبت في ملفات جهازي حتى وصلت لبعض الأغاني "المرحة".

للموسيقى أثر هيب على النفس البشرية، أحسست بالألحان تغسل روحي وعقلي من أي أفكار أو احساسين، و اندمجت في الألحان الصاخبة، شيئاً فشيئاً بدأ اكتشافي يتراقصان مع اللحن ... "لم لا ؟!" أسررت لنفسي " ما زلت حية اليس كذلك ؟"

فمت من جلوسي الطويل و بدأت بالتمايل بغنح ودلال لا تجديهما إلا الأمل الشرقية، بدأت الضحكة تلعو وجهي، أحسست بروحي تتفتح كوردة العشيها أشعة شمس يوم ربيعي ...

" و إنت إيدك في إيديا قولي هسيها ليه " لمست كلمات الأغنية جرحاً هائراً و عاد السؤال القديم يتراقص بداخلي "لماذا تركتي؟ كان يحيي و بهشقي، كنت له الدنيا ... فلماذا رحل عني؟" شيئاً فشيئاً ثار طوفان العويل في داخلي، تغيرت حركاتي لتتناسب مع فيضان جراحي، وبدأت أرمخ في كل مكان في الغرفة كطير ذبيح، عادت الذكريات للتكدس في كومات من المسور فوق مرآة روحي، أخذت أدور في كل مكان مصطدماً بالأشياء من حولي، كاسٌ بلوريةً على طاولتي سقطت و تهشمتم، و لكائنا بهشمها أرسلت رسالة لهقلي بأن يغيب، فانطلق جنوني من عقاله و أخذت أرمي كل ما تصل يدي له في نوبة جنونٍ مطلق، و صوتٌ بداخلي ينُّ بوجع: "لماذا؟! لماذا؟!.. لماذا!؟!"

انتهرت على سريري، دفنت رأسي في وسادتي، اختلطت صرخاتي بدموعي "لماذا!؟ لماذا!؟!" .. "لم أتوقف حتى خارت قواي تماماً.

كدت أسلم نفسي لسباب عميق، على الرغم من الصوت المرتفع للأغاني الصاخبة، و الذي نجح بإخفاء نوبة غضبي عن أبي و صغيرتي، لكن زنين الهاتف انتشلي من على حافة كابوسٍ كرهه و أنا لا أزال على مشاركته، لم يكن هاتفي المحمول طبعاً، فهو مستمر في صمتٍ اعتنقه منذ لمسته يد سمير؛ كان الهاتف الأرضي، أغلقت حاسوبي بسرعة، و رفعت سماعة الهاتف محاولة إخفاء أثار البكاء عن صوتي ...

- "سهام أنت بخير؟"

كانت تلك صديقةً قديمةً للأسرة، صديقةً منذ طفولتي، في الواقع منذ طفولتها هي وجدتي ..

- "نعم يا خالة أنا على خير حالٍ والحمدلله، وأنت؟"

- "حمداً لله، وماذا عن رضوى؟"

استغربت سؤالها، فالخالة رضوى شقيقة جدتي، كانت قد رفضت كل محاولةٍ لنا لإقناعها أو للضغط عليها بكافة الوسائل والطرق لتقبل الانتقال للسكن معنا، خوفاً عليها من الوحدة وظروف الحرب الصعبة، إلا أنها أبَتْ وأثرت هدوء منزلها وصحبة جيرانها القدامى.

- "خالتي رضوى في منزلها" أحببتها والدهشة تملأ صوتي

- "حاولتُ أن أتصل بها دون جدوى، أردتُ أن أطمئن عليها بعد الانفجار."

طبعاً الانفجارات أصبحت جزءاً من حياتنا اليومية، لكن .. أن يرغب أحدهم بالاطمئنان عنك بعد انفجار، فهذا لا يعني إلا شيئاً واحداً...

- "أيّ انفجار؟" أحسستُ بموجة صقيعٍ تسري في جسدي كله، ثم سألتها. "أين؟"

- "ليس بعيداً عن مساكن الخالدية يا بني، لذا اتصلت لأطمئن."

بدأ صدري بالانقباض، انفجارٌ قريب، يعني على أفضل تقديرٍ شظايا زجاج البواقد!

- "قلبتُ لي اتصلتُ بها؟"

- "نعم يا حبيبي ولم ترد علي." تردّد خفيفٌ بدى في صوتها، فقد أدركت للتوّ أنّها أفلقتني بشدة.

- "حسناً سأطمئن عليها وأعاود الاتصال بها، لا تقلقي لا بد أنّها بخير، ربما تكون نائمة." حاولتُ أن أخفي قلقي عنها، وطمأنتها فيما كانت نيران الفلق تهش في صدري ..

- "بارك الله فيك يا ابني، السلام عليكم."

- "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته."

صورٌ بشعةٌ بدأت تطوف في خيالي وأنا أقفل السماعة، وأعاود رفعها بسرعة لأطلب الرّمق الذي أحفظه عن ظهر قلب، خالتي رضوى، التي كانت تحشي فمي وجيوبِي بكل أنواع الحلوى كلما رأيتهما، كنت زيارتي لها أشبه بزيارة مغارة علي بابا، كنت أجولُ في غرفها مستكشفةً في رحلةٍ خياليةٍ للبحث عن الكنز، إذ كان يحلو لها أن تخفي في كل زاويةٍ شيئاً من السكاكر والشوكولاتة، كانت همى إمتاع الأطفال، الأطفال الذين حرّمها الله نعمة إنجائهم .

انقطع صوت الرنين دون أن يردّ أحد، عاودتُ الاتصال ثانية...

لقد قصّرتُ مؤخراً في حق خالتي رضوى، كانت تأتي إلينا حاملةً سنيها التسعين، والكثير من الحلوى لأمل، فيما تخصّني بساعاتٍ من العتب الحزين

ربما لأننا مع انقطاع التيار الكهربائي والمياه والاتصالات المستمر كنا قد فقدنا قدرتنا على الاعتماد على وسائل الحياة العصرية، مما أحى بداخلنا البربرة إنسان الغاب، قد يكون ذلك هو السبب الذي دفعني للنظر إلى السماء في محاولة لاستقراء الوقت بدلاً من النظر في ساعتي، أو ربما لأنني في هذه المرة لا أستعجل عودتي إلى المنزل خوفاً من والدٍ يقرعني ببعض الكلمات الماسية لتأخري لبضعة دقائق مرت بعد ساعةٍ متفق عليها، بل كنت في هذه المرة أحمى الظلام، الظلام الدامس لمدينةٍ نسيت مجون الليل وأنواره البراقة في سهراتها الشرقية الراقصة حتى الصباح.

حلب العروس المدللة، بمحلاتها ودكاكينها التي كانت لا تفتح بأي حال إلا بعد صلاة الظهر، ونوادبها التي كانت لا تخلو من روادها حتى ساعات الصباح الأولى، أصبحت الآن "منطقة عسكرية" كما سماها في ذلك الرجل منذ بضعة أيام، وفي المنطقة العسكرية، الليل يعني حراسةً مشددةً، تلك الحراسة العسكرية كانت ما أخشاه...

المهم أنني رفعت عيني للسماء، فلم أَر السماء! رأيت عوضاً عنها سحباً كثيفة من الدخان، وما تمكن من البروز من ورائها من ثوب السماء المخملي، كان مضرجاً بانعكاسات ألوان الحرائق عليه، أما الشمس فما كانت تتربع على عرشها مرتديةً ثوباً يرتقالياً هيباً، بل كانت تلتصص من خلف الوشاح الخانق مضرجةً بلونٍ أحاول أن أهرب منه في صور أطفالٍ شهداء... لون الدم...

أشحتُ بنظري عن السماء، وأسرعتُ بخطواتي محاولة الوصول بسرعة، قاطعةً المسافة بيني وبين الأظمنان على خالتي الطيبة، كنت أحاول أن

"ساموت يوماً دون أن يدري بي أحد، لأنك لا تسألين عني" كنت في كل مرة أقدم لها طبقاً مشكلاً من الاعتذارات: "العمل"، "ظروف الحرب"، "التعب"، "أمل ودراستها"... كانت في كل مرة تتناول منه ما يكفي لإرضاء خاطرها الكسير، وتعود المرة التالية حاملةً في جعبتها عتاباً كبيراً وقلقاً أكبر، من أن تموت وحيدة.... خالتي رضوى!

للمرة الثانية انقطع صوت الرنين دونما رد ..

كل أقربائنا إما رحلوا أو هاجروا أو لجأوا إلى بلادٍ أخرى هرباً من ويلات الحرب، ولم يتبق لي إلا أبي، ابنتي، وخالتي رضوى: لا بد من أن أطمئن عليها، ارتديت ثيابي بسرعة، ذهبت لأبي وشرحت له الموقف، وافق على مضمي بعد أن حاول الاتصال بها مجدداً دونما جدوى ..

- "لا تتأخري يا ابنتي، الطرقات ليست آمنة حين يحل الظلام و
الجواجز...."

- "أعلم يا أبي، لن أطيل الغياب لا تقلق."

وعدهت بأن أسرع خطاي، الطريق كان طويلاً وساعة المغرب كانت قد اقتربت، لكنني وعدته بأن أعود باكراً وأنا أمنحه قبلةً على جبينه الوضاء، منعتُ صغيرتي الحلوة قبلةً على وجنتها، وعداً بإحضار الكثير من حلوى الغالة رضوى، وخرجتُ من البيت مسرعةً وفي خيالي صورةً مليحةً لامرأةٍ عجوزٍ طيبةٍ ممددةً على أرض منزلها، مضرجةً بالدم.

أشغل نفسي بأي شيء لأبعد اللون الأحمر عن خيالي، فالتخذت من مراقبة المازة تسلية لي، باحثة عن قصة في كل وجه ..

هذان عاشقان تشابكت أيديهما، يستعينان بهما على مجابهة ألم الحرب وخوفه، في محاولة لرسم مستقبل عذب، يكونان فيه معاً أكثر قوة ..

وهذه أسرة تسعى للسفر من البلد، لا .. ليست بأسرة نازحة، نظرة لوجه الأم تؤكد لك ذلك، لم يكن في عينها تلك النظرة لألم كادت تفقد أطفالها، أو على أفضل تقدير من يعيها وإياهم، ولم يكن على عينها نظرة من تهتم منزل جيرانهم و هرب بروحه تاركاً وراءه تاريخاً يعلم أنه لن يراه مجدداً، حتى حقيقهم لم تكن كبيرة كحقيقية أسرة تحاول أن تحتوي ذكريات عمرٍ بأكمله، كانت حقيبة صغيرة تتناسب مع جشع شركات الطيران، والمستقبل المجهول الذي يسعون إليه ..

أما هذا فهو أبٌ ولا بد، يحمل خبزاً، الكثير من الخبز وعلى وجهه ابتسامة سعيدة، تنى بحلم بصيحات فرحة متقافزة من أطفالٍ يستقبلونه منتشدين ما بين يديه بسرعةٍ وهم، وبقبلةٍ فخورةٍ على وجنته من زوجةٍ طالما صبرت عليه في ظروف الحرب القاسية ..

غرقت في بحرٍ كاملٍ من التخييلات أسافر من وجهٍ إلى آخر، ومن قصةٍ إلى أخرى، أما الشمس فكانت تسابقني في خطواتها مسرعةً في انحدارها، محاولة الهرب من سماء مدينةٍ نقش الألم على أزقتها و شوارعها بلغة الأسلحة و المدافع، مدينةً استبدلت هديل الحمام بأنات الألم و صرخات الخسران، لکم هنت يا بلدي، حتى على الشمس !

بدأتُ الألاحظ بأن كل من يمرّ بي يتجه إلى الناحية المعاكسة مسيراً، فبدأتُ أومن يسير عكسياً في طريقي باتجاه واحد، كان المازة يلتفتون لي، كلٌّ منهم يلقي لي نظرةً مختلفةً من الاستغراب أو الاستهجان أو الشفقة، نعم كنت أعلم بسبب تلك النظرات لكن .. كان علي أن اطمئن على خالتي رضوى !

بدأتُ أقرب، شارعان بعد و أصل إليها، هربتُ من نظرات المازة إلى العربات على جانبي الطريق، فلاحظت أن كل عربة منهم كانت موسومةً بثقب رصاصيةٍ واحدةٍ على الأقل، ثقبٌ على الزجاج الأمامي لقناصٍ غادرٍ يشمّ الزجاج و يرسم خطوطاً عنكبوتيةً على اللوح بأكمله، أو مجموعةً من الثقوب لمدفع رشاشٍ على أحد الأبواب، لا يسعك إلا أن تفكر بعد أن تراها: "هل نجي؟ أم أن تلك الرصاصات لم تخترق الهيكل المعدني للعربة فحسب؟"، لكم أكره الأسلحة، لكم أكره الرصاص !

وصلتُ أخيراً إلى بيت خالتي، و لكم ارتاح قلبي لرؤية زجاج نوافذها سليماً.. فعلى الرغم من انهيار و تصدع و تهشم أغلب زجاج بيوت الحي إلا أن زجاج نوافذها القديم ظل صامداً، تنفست الصعداء ثم هممت بتسليق السلم بسرعةٍ حتى وصلت إلى بابها الخشبي المزركش بنقوش جذابة، لا كهراء، لا جرس، قرعت الباب بقبضتي، دقناق و فتحت لي كوةً في بابها، و ما أن رأني حتى انفرجت أساريرها، و أساريري، لا دم على وجهها المتفصّن الحبيب، خالتي رضوى بخير .

كان شعرها الأبيض الأجدع متناثراً في كل مكان، فيما ارتدت ثوباً منزلياً اصفرأ، لا بدّ من أنّها كانت تستعد للنوم، قبلتها من وجنتها رافضةً كل محاولاتنا لإدخالنا إلى منزلها وتقديم " حق الضياقة ". أخبرتها بأنني على عجلةٍ

من أمري فيجب أن أعود لمتزلي قبل أن يحلّ الظلام، فهزّت رأسها بقلق، لكن مع القلق رأيت في عينها لمعة عرفانٍ سعيدة، قررت أن أستغل الفرصة ..

- "قلتُ لك يا خالتي .." قرصت وجنتها بحبٍ كمن يدلّل طفلةً صغيرة "نحن دوماً معك و حولك، لا تخشي شيئاً!"

ابتسمتُ بسعادةٍ ودَعَت لي كثيراً، ودَعَمها و نزلت درجات السلم بسرعة و هي تلوّح لي من أعلى، نعم، رسمت نفسي أمامها بصورة البطلة الخارقة، أجتاز أهوال الحرب و الدمار لأتقذ خالتي العزيزة، أراها من أيّ مكانٍ و في أيّ مكان، كانت صورةً طفوليةً جداً، لكن من قال بأن العجائز ليسوا أطفالاً حكماً ؟

ابتسمتُ بسعادةٍ، لا يد أن خالتي رضوى ستنام اليوم هانئةً دون أن تقلق من أن "تموت وحيدةً دون أن يدري بها أحد".

انتشلي من ابتسامتي منظرٌ مزعج ... حاجز!

لم يكن هذا الحاجز هنا عندما مررتُ منذ قليل، نعم .. إنه حاجزٌ طيار، على الأقل هكذا كانوا يسمونه، حاجزٌ يأتي فجأةً يخنفي فجأةً في المناطق التي تحتاج لفرض الأمن عليها \ أيفرض الأمن ؟ \

أكثر ما يخيف في فكرة الحاجز الطيار، هو أنه غالباً .. يكون تحت سيطرة الشبيحة !.

بدأتُ بدراسة المازق الذي أتجّه نحوه بسرعة:

واحد، إثنان، ثلاثة، نعم ثلاثة .. ثلاثة عناصرٍ على الحاجز، أحدهم يقف بعيداً، يبدو صغيراً جداً لا يكاد يبلغ السابعة عشرة، يحمل سلاحه بتحفظٍ و

الثلث، الثاني كان يجلس على كرسيٍّ عند باب الحاجز يلمّع سلاحه بقماشٍ قديمة، كان وجهها بلا ملامح، كل ما تستطيع أن تقولوه عنه، هو أنه يرتدي بذلةً عسكرية، و لكنّ البذلة العسكرية كانت ترتديه لا العكس، فإن اختفت البذلة، يختفي من الوجود؛ الثالث كان يقف في الطرف البعيد أمام الحاجز، كان يبدو صلوكاً في أواخر الثلاثينات، بعينين غائرتين، لحيّة رمادية شعناء، و كرشٍ ضخمٍ يغطيه بأحزمةٍ حاويةٍ للرصاص، كان ينظر لي و أنا مقبلةً نظراً المشعر لها بدني، نعم، كنت أعلم ذلك، لقد كنت في خطر !.

و كما غريقٍ في مجرى نهر هائج، لم أتمكن من مغالبة أمواج خطواتي و هي تحملي إليهم.

عندما اقتربتُ من بوابة الحاجز وقف الثاني متكاسلاً رامياً بالقماش التي كانت في يده على الكرسي بلا مبالاة، فيما دفع سلاحه لخلف كتفه

- "تفتيش".

مددت له حقيبتي، لم يكن بها الكثير من الأغراض، قلبتُ فيها بسرعة، ثم رفع عينيه لي بنظرةٍ هازئة، لا شيء هنا، أخذ يقبلني بعينيه و ابتساماً صفرأء تتراقص على زاوية فمه، أبعدهتُ نظراتي عنه بسرعة، رفعتُ حقيبتي إلى كتفي و هممتُ بالمضي في طريقي، لكنه أخذ خطوةً سريعةً ليقف أمامي ساداً الطريق بوجهي ...

- "ألا تخفين شيئاً هنا ؟"

قال هذا و هو يمدُّ يده متحسناً صدري بوقاحة، دفعته يده بسرعة بحركةٍ دفاعية، و أخذتُ خطوتين للوراء لاعتُرتُ بشخصٍ كان يقف خلفي، لقد

كان نالهم، ذو اللحية الشعثاء، أحسست بها على رقبتي، كما أحسستُ بجسمه يلتصق بجسمي، أطلق انفاسه على أذني وهو همس :

- "إلى أين تمهرين ... قبل أن تمتعينا؟"

وبدأت كل نواقيس الخطر تدق في رأسي، وأنا أحس بذراعيه تطوقاني فيما كانت يده تندس تحت ثيابي كحشرة كبيرة مقرقة ...

عشرات من القصص كهذه سمعت، تعاطفتُ معها كلها، وبعضها المني وجرحي، وبكيت عند سماع الرواية الكسيرة لبعضها من فتيات تمّ إذلالهنّ و تحويلهنّ إلى أداة متعة لبشرٍ أقلّ ما يقال عنهم أنهم حثالة المجتمع، لكن، في طبيعة البشر شيءٌ يدفعك لتعتقد بأنك مختلف، وبأن ما حدث لهنّ لن يحدث لك، لكن، ها أنا ذي، وعليّ التصرف بسرعة!

ومن آلاف النصائح التي قرأتها للتصرف في مثل هذه الحالات قررت أن أرد بعنف، "قبصة، مرفق، خبط" "قبصة، مرفق، خبط" "قبصة، مرفق، خبط" أخذت أردد في داخلي مستجمعة كل شجاعي وأنا أحس بيده تتسلل إلى أعضائي، "قبضة" رفعت قبضة يدي في ضربة مباغطة تفجرت على أنفه، "مرفق" كان من المفترض أن أضرب بطنه بمرفقي بعد ذلك حتى ينحني، لكنه كان قد سحب يده من تحت ثيابي ليغطي وجهه بآلم فيما استبقّني ودفعني بسلاحه في ظهري بعنفٍ أوقعني على ركبتي، سمعت بعدها صوتاً ألياً خلفي، انتفضتُ وأحسستُ بالدم يهرب من جسمي، أغمضتُ عيني

- "طول بالك أبو كيفوا!"

ها الردّ من أمامي، رفعتُ عيني لأراه ببذلته العسكرية واقفاً أمامي وعلى وجهه الخالي من الملامح ضحكةٌ قذرة، ركلي بجانب رجله وتابح:

- "هذه الكلية كانت ستعينا بلا طائل، وأنت تعرف جيداً من يجيد لربية أمثالها."

ضحكةٌ مخيفةٌ انفجرت من خلفي ..

- "أبو ضبعو!"

قالها و اقترب مني، سحبني من غطاء رأسي فتمزق بين يديه و انهال شعري على ظهري، رفعت يدي لألممه لكنه كان قد سبقني وأمسك به، شدّني منه بوحشية وهو يقرب أذني من فمه ..

- "بعد أبو ضبعو ستعودين لي زاحفة!"

رمانتي أرضاً مجدداً وهو يبصق ...

- "هذا إن بقيتي حية!"

سحبني الآخر من ذراعي فيما زج هو سلاحه في ظهري، كانوا يسوقوني نحو عربةٍ قريبة، استوقفهم الصغير، رأيتُ في عينيه شيئاً دفعني لأنظر له بتصرّع. لسّسْتُ أدري ما حلّ بي، كيف استعطفُ شبيحاً قذراً ولو بنظرة! طبعاً لم أغير لنظراتي أيّ اهتمام، ونظر بعيداً وهو يطلب منهم جهازَي المحمول .

سجّر ذو اللحية منه قليلاً، فيما سحب الآخر حقيبتي من كتفي ورمى بها إليه، إستخرّجَ جهازَي منها بصمت، ومدّ يده لي بالحقيبة، أخذتها منه فابتعد

- "وبانتظار أن يخدمك في أي لحظة" ردّ صوتٌ بعيدٌ باستمتاع .

أمل...! أمل...! إلا أمل...! ركعتُ على الأرض وأطرقت رأسي، سحبي ودفعني
بأرجاء غرفة الحراسة، مشيت والدنيا تدور بي، إلا أمل...! إلا أمل...! وبصعوبةٍ
فصوتى تمكّنت من وإذ صوّر كثيرةٌ وصوت أميرتي تبكي ... إلا أمل !.

دفعني أمامه بعنف، متعمداً إسقاطي على الأرض، تمكّنت من الحفاظ
على توازني بصعوبة، أجلتُ عيني بسرعةٍ في الغرفة التي ربما تكون آخر ما
أراه، كانت غرفةً معتمّة، لا منفذ للنور فيها إلا الباب الذي كان يسده بجسده
الضخم، صغيرةٌ كالقبر، جدرانٌ إسمنتيّةٌ كنيّبة، يصدر صوت نشيدٍ بعينيّ
متقطعٍ من تلقاؤ متناهي الصغر يقبع على طاولةٍ حديديةٍ رمى أحدهم عليها
تشكيلاً من أمشاط المسدسات و خزائن الرصاص باستهتار، خزانةٌ معدنيّةٌ
يلتصق بها سريرٌ ضيقٌ قدير في الزاوية الأخرى من الغرفة، وإلى جوارهما نبتةٌ
خضراء، لولا فداحة الموقف لكنّ ضحكٌ ساخرٌ من المفارقة السخيفة !

أصوات قهقهات بدائية كثيرةٌ تبعتهُ وهو يدخل ورائي، صوت أحدهم
ارتفع ضاحكاً :

- "الله حيو أبو ضبعو!"

ردّ على التعليق بضحكةٍ شاذّةٍ متقطعة، أشبه بصوت نداء الضبايع،
ارتعدت كل فرائضي، ولم أتمكن من منع انقباضةٍ قويّةٍ بدرت عني مع
سماعي لصوت الباب وهو ينطبق بعنف .

ازدادت الغرفة عتمّةً وكأبة، ضغط على زرّ الضوء ليقتمحها خلال ثوانٍ
ضوء أبيضٌ شاحبٌ أشدّ كأبةٍ من الظلام نفسه ...

مختفياً، فيما تابع الإثنين جري نحو العربة، حاولت كثيراً أن أقوم، شتمتهما
بكل ما كان في قاموسي من مفرداتٍ بذينة، لكن كل حركاتي كانت تزيدهم
ضحكاً فيما كانا يكيلان لي الركلات والصفعات، استمرت الرحلة في العربة
بضعة دقائق حتى وصلنا إلى حاجزٍ آخر أكبر قرب مستشفى شيجان، فتح
أحدهم باب العربة ونزل منادياً..

- "أبو ضبعو.. لقد أحضرنا لك هدية."

جئةٌ ضخمةٌ كانت ما لمحت يقترّب على آخر أضواء النهار، وذراعٌ تمتدّ من
الباب المفتوح لتمسك بي، أنشبتُ أسناني بوحشيةٍ فيها ...

- "يا ابنة الكلب!" تبعتها قهقهةٌ عالية

- "لم أحضر لك أيّ هدية" تابع ذو اللحية " هي من النوع الذي تحب."

- "ها توها!"

أيدي كثيرةٌ امتدّت تسحّبي من ثيابي، من شعري، من ذراعي، حتى وصلتُ
إمامه، حاولتُ أن أهرب مجدداً، لكن صوته انسكب بارداً كالثلج ..

- "حلوةٌ هذه الفتاة الصغيرة، ربما يجب أن أحضرها عوضاً عنك."

اتّسعتُ عيني في رعب، كان أحدهم قد سلمه حقيبتي، حقيبتي التي
وضعتُ فيها كأيّ أمّ غبية .. صورة ابنتي.

- "الفرقان .. هممم..أسعد ألا زال أبو عنتر على حاجز جامع
المبشرين؟"

أحسست بفوهة البندقية بين أكتافي تدفعني بقسوة، سرت أماماً بضعة خطوات حتى وصلت لزواوية من الغرفة كانت بقع الدماء واضحة فيها، على الجدران، على الأرض، في كل مكان حتى على السقف !

صوّر سبق ولمحتها في جولاتي بين البيوتوب والفيس بوك ما كنت لأجرؤ على مشاهدتها كاملة، تعليقات جريئة وتصريحات دامية تواترت على ذهني بسرعة رهيبه، تداخلت في ضجيج أصم حواسي كلها، وسرعان ما أخرسها أصوات صرخات كثيرة وتضربات ونواح، قطعها صوت فحيحه في أذني:

- "تحسين نفسك كالرجال!؟ سأريك اليوم ماذا تعني كلمة رجل!"

أردت أن أزد له الإهانة، أن اشتفه، استحضرت صوتي فلم أجده، وبدأ العرق البارد يتصبب مني وأنا أحسُّ ببندقيته تجول على ظهري، تسري على جسدي كتعبان سام، لمسّت أصابعي بقعة داكنة على الجدار، أحسست بأنيتها وألمها، دفع رأسي حتى التصق وجهي بالجدار، أقحم السلاح في ثيابي وزجّه في عنقب، أفلتت مني صرخة كتبتها بسرعة ... ملأت قهقهته الغرفة كسحابة صفراء وتردد الصدى في أذني ألف مرة، أعاد الكرة مرة أخرى، عضضت على شفتي كأنه صوتي بعناد " لن أمنحه فرصة التلذذ بعداي " زفر بغضب، ابتعد عني قليلاً وصرخ مزمجرأ ..

- "استديري ."

لم أجِد حراكاً وقبعْتُ ساكنة في زاويتي بهدوء، جذبني بوحشية..

- "استديري يا عاهرة!". دفعني حتى أحسست بفقرات ظهري قد اندمجت بالعائط الإسمنتي، زدت العض على شفتي السفلى مانعة أي صوت، لطمني

على شدي بعنف، سقطت ارضاً وأحسست بطعم الدم في فمي، سال خيوط الدم من الدماء من جانب شفتي، عادت الصور لتندافع في مخيلتي، مشاهد متنازلة من أفلام كئيبة، وقصص صفراء، صوراً لفتيات على صفحات الحوادث ظللت أعينهم بخط أسود للحفاظ على "خصوصيتهم" مخزوناً كامناً من الربيع في داخل كل امرأة شرقية، أطلت من عيني، لا بد أن ما شاهد قد أمنعه، بدأ يلهث بحيوانية بشعة، ومد إصبعه ليغترف خط الدم من على

كنت حتى تلك اللحظة قد نجحت في تجنب النظر إلى وجهه، نظرت للأعلى لأرى عينين حمراوين جحظتا بوحشية مفرزة، شفتين يقطر منهما اللعاب وهو يلحق الدم من على إصبعه، تردّد صدى الإسم في زحمة افكاري " أبوضبعو ."

أنى حركته الإستعراضية الرخيصة، واقترب مني ليكبّل يدي بإحدى يديه، ويقحم رأسه في صدري كحيوان مفترس، وعلى الرغم من نهشه لجسدي بأنيباه وأظفاره، وعلى الرغم من الألم الشديد، لكن الشعور الذي سيطر عليّ كان شعوراً بالقرف والاشمئزاز، أحسست كما لو أن ديدانا تسري تحت كل بقعة من جلدي ... تقلّصت ملامح وجهي لتعبّر عن إحساسي، رفع رأسه وواجه نظراتي بنظرات شيطانية مجنونة، أحسست بالشر يتطاير من عينيه، سحب البندقية من على كتفه وضربني بها مجدداً على رأسي بقسوة، سقطت ارضاً مجدداً، تمنيت لو أ فقد وعيي، أما أن لجسدي أن يهار؟! جذبني من شعري بسرعة، أفلتت مني أنه أكره نفسي لإطلاقها حتى اليوم، فقد اشتتم فيها ضعفي وسيطرته، لم يريق متوحشاً في عينيه، ولاح التواء مستمتع على شفتيه الملوثتين بدمائي، لعقهما وهو يخرج من جيبه مقصاً حديدياً كبيراً بدأ

ينشبهه في خصلات شعري، يرميها خصلة خصلة على الأرض و هو يضحك
ضحكاته المرعبة المتقطعة .

أدركتُ سبب ضحكاته عندما تغلغل ملح دموعي في جرح شفتي بحرقه لم
تكن لتقارن أبداً بالأم الذكريات المحتضرة على أرض الغرفة، صورتهُ وهي
تمسّط شعري بفرشاتها الزهرية الجميلة وتشبك شرانقها الملونة فيه، وهي
تبارزني من منأ شعره أطول وأنعم ملمساً، وهي تزرع زهورها بين الخصلات
السوداء الطويلة، وهي تلاحظ الشعيرات الفضية التي بدأت تغزو رأسي و
تضحك وتعدّها كنجوم ليلة صيفٍ صافية، ذكرياتٌ يموت كلُّ منها على جِدة
مع خصلة شعرٍ جديدة، تساقطت الدموع ملامسةً إياها لتمنحها قبلة وداعٍ
أخيرة، ذكرياتٌ ماتت، تشيخها ضحكاتٌ مجنونةٌ من شبيحٍ قدر!

أمل .. عليّ أن أفكر بأمل، هي الآن بأمان، بانئت لي ضحكها الرقيقة تقتحم
بحور الظلمة التي أحاطت بي، "ستبقى بأمان، وسأعود لها".

ضحكها زرعت القوة في روحي المتعبة، ابتلعتُ غصتي و دموعي و ارتديتُ
إزارَ شجاعتي مجدداً، ورسمتُ نظرةً متعاليةً على وجهي وهو يفتالُ ضحكات
السمر على كتفي، ومع آخر خصلات شعري ازدادت ضحكاته جنوناً و هياجاً،
أمسك بنديقيته بيده و قرب فوهتها من فمي..

- "العقبا ."

أتسعتُ عيناى لهول الفكرة! أ يوجد كأنّ بهذا الجنون !؟

دفعها نحو شفتي بقوة، أحسست بعدها بانكسار سني أو اثنين من أسناني
الأمامية ..

"العقي !" نظرت له بذهول، غير مستوعبةً للفكرة، ضربي بركبته في
الأيام الأيسرهادراً :

"العقي يا ****"

"أمل... لن يصلوا لها، لن يصلوا لأمل" مددت لسناً مضرجاً بالدم لمستُ به
المعدن البارد بتردد، أقحم الفوهة في فمي بيد و بدأ يحل بنطاله مخرجاً
سبوه بيده الأخرى .

الآن سأدفع الثمن، سأدفع ثمن سكوتنا عقوداً على حكمٍ فاشيٍ عنصريٍ
«جنون، قام على أيدي المرتزقة والمجرمين والمرضى، الآن .. الآن سأدفع
الثمن!

زاد من إقحام السلاح في حلقي، لم أملك نفسي فتقيات، تقياتُ أمني و
خوفي، تقياتُ كرهِي وقهري، فخرجتُ كلُّ مشاعري الإنسانية على هنية سائلي
أصفر اختلط بالدم.

سحبَ سلاحه لاعناً بسخط، رمانى أرضاً و أخذ يركلني برجليه مراراً، ركلي
و ركلي و ركلي، ثم سحبي حتى استقرت على ركبتي أمامه، عرفت ماذا يريد،
أغمضتُ عيني و استحضرت صورة أمل، قررتُ أن أفصل جسدي عن روحي و
أغيب معها في حلمٍ جميل، أن أهرب مع طفلي الجميلة: لم أعد أشعر
بجسدي، لم أعد أشعر بشيء ... إلا بابتسامها الرقيقة و رائحة الزهور التي
تزين شعرها الجميل .

صوتُ ضرباتٍ عنيفةٍ على الباب سحبتني عنوةً من حلم لم يبدأ بعد ..

- "أبو ضبعو... إفتح الباب!"

صرخ بغضبٍ وحشرج بصوتٍ حيواني

- "يا **** لماذا تقاطعني!؟"

- "إفتح يا أبو ضبعو، أتركها الموضوع خطيرا!"

سمعتُ صوت خطواته تباعد، إنهرت على الأرض غارقة في دماغي وقبيني و
دموعي، أسلمت نفسي للظلام، لا بد أن أمل في الطرف الأخر منه .

أصواتٌ كثيرةٌ متداخلةٌ بدتْ كحلجٍ بعيدٍ يحاول أن يخترق جدران عثمتي،
 تجاهلتها جميعاً وقبعثُ باسترخاءٍ في بحر الظلمة اللذيذ، بدأ العتم يتسرب إلى
 كل حواسي بهدوء، أحسست بسلام تام... نعم، أنا هنا بأمان، لقد غلقت روعي
 بأوشحةٍ من اللاوعي، فليفعلوا ما يشاؤون بجسدي، روعي باتت حزة، أنا
 بأمان، لن يصلوا إليّ هنا أبداً !

غبتُ أكثر في غياهب عثمتي ... أكثر ... وأكثر ... ما كان ليخرجني منها إلا
 صوتٌ واحدٌ فقط، صوت بكاء ... بكاء طفلةٍ صغيرة ...

أمل !

فتحت عيني بهدوء، ارتسم أمامي سقفٌ أبيضٌ مألوف، غطاءٌ أبيضٌ يغطي
 جسمي، نسائمٌ ليليةٌ هادئةٌ تتلاعب بستارةٍ رقيقة، نعم .. أنا في غرفتي، على
 سريري، ربما .. ربما كان كابوساً فحسب !

رأسها الصغير كان مدفوناً بين يديها على الغطاء، حبيبتني كانت تبيكي!
 مددتُ يدي ووضعتها على رأسها و مسحْتُ على شعرها الحريري بحنان،
 رفعتُ رأسها لي بسرعة، عينها كانتا حمراوان من البكاء، والدموع تلمع على
 وجنتها المبللتين كزهرتي نرجس تتلنلان سحراً في صباح يوم ماطر .

- "لماذا تبكين يا حبيبتني؟"

مدتُ ذراعها واحتضنتني بلهفةٍ وهي تشفق بالبكاء، ندتْ عني صرخة ألم
 خافتة، كان جسمي كله يؤلمني ..

بدأت بالتأفف فضحكتُ باستمتاع، وفي قلبي لمعت شرارةٌ من السعادة. لا شيء .. لا شيء في الدنيا كلها يقاوم الألم ويقشع الظلمات كبراءة الأطفال. قبلتُ يدها الرقيقة بحبٍ وطلبت منها أن تنهي دروسها وتخلد للنوم، مسحتُ يدها الصغيرة على غطاء رأسي، قبلتُ يدي بطاعةٍ و خرجت بهدوء، فيما اقترب والدي مني...

- "أنتِ بخير يا حبيبي؟"

كان الحزن يتقاطر من عينيه الحنونتين، أنا لم أت على ذكر والدي قبل الآن، ربما لأنك عندما تصف غرفةً غنيّةً بالتفاصيل تهمل وصف الجدران التي تستند إليها، فقد اعتدنا على أن الجدران من المسلمات، أبي كان حصي و جداري بوجه الأيام.

ألقي الضوء الخافت على شعره الأبيض ظللاً حزيناً فيما أحسستُ من ملامح وجهه بمعنى كلمة الانكسار، نظراته الحزينة اخترقت روعي كسهم من نار، والحنان في صوته الدافئ أطلق سراح دموعي من سراييب الألم، كظمها بصعوبةٍ وأشحت بناظري بسرعةٍ وأمأت برأسي.

وضع يده على كتف سمير...

- "شكراً يا بني، لست أدري ما كنا لنفعل بدونك!"

- "لا شكر على واجبٍ يا عم."

لم أفهم شيئاً! ما الذي حدث؟ ما الذي جاء بسمير هنا! ولم يشكره أبي؟ هل أنقذني مرةً أخرى! كيف؟

- "لا يا حبيبي خذي حذرك، ستؤذين جراح ماما هكذا."

اتسعت عيناى بذهولٍ لسماع هذا الصوت ..

- "سمير؟ .. ما ال..."

جلس بجاني وأمسك بيدي هامساً بهدوء ..

- "كل شيء على ما يرام الآن، كل شيء على ما يرام."

أجلتُ نظري في الغرفة بشكلٍ، هي حتماً غرفتي، هذي خزائني خطّطتُ عليها بعض أبيات الشعر ورسمت أميرتي زهرةً جميلةً مثلها والكثير من القلوب الحمراء، هذه صورتنا سوياً نضحك من قلبنا ولكأننا نملك العالم بأسره، وهذه طاولتي تقبع عليها أوراقي وجهازي المحمول، نعم هي غرفتي، لِحظتُ أبي على باب الغرفة غارقاً في حديثٍ منخفضٍ مع طبيب العائلة .. الطبيب .. وهذا الألم .. إذا لم يكن كابوساً!

لا بد من أن سميراً لاحظ النظرة القائمة في عيني وقرأ منحني أفكارى فانتشلي مما كان ليكون إبحاراً في عاصفةٍ من الذكريات السوداء ..

- "سهام، لقد انتهى كل شيء، أنتِ الآن بأمان."

عيناها الواسعتان الخضراوان كانتا تحدّقان فيّ بقلق، لويت شفتي الجريحة على هيئة ابتسامةٍ لأمسح نظرة القلق البغيضة عن وجهها ..

- "حبيبي أنا بخير، لا تقلقي .." ثم نظرت لها نظرةً تجيدها الأمهات فقط "هل أنهيتِ دروسك؟"

جدران إسمنتيّة ملطّخة ببقع كبيرة من الدماء، تكبر وتكبر وتضخ ألوانها
لشكل كلّ منها على هيئة وجه فتاة باكية، تنبثق من الجدار ووجهاً تلو الآخر. و
يبدأ بالصراخ صرخاتٍ متتابعة موجعة، أحسستُ باهتراءٍ روحي لشدة الألم،
وضعتُ يدي على أذني و حاولتُ الهرب، لكنه كان على الباب، يسدّه بجسده
الضخم، يضحكُ ضحكاتٍ متقطعةٍ مجنونةٍ كصوت الضباع، فيما تتقاطر
الدماء من أشداقه، يحلّ بنطاله و ..

المخ على الطاولة المجاورة أسلحة كثيرة، اختارُ بندقيةً كبيرة، ألصقتها وأطلق
طلقاتٍ كثيرةً متتابعةٍ نحوه حتى يفرغ خزان الرصاص، صوت أصداء ضحكاته
يزداد جنوناً وهياجاً، ليختلط بالصراخات المرعبة، وهناك .. حيث أطلقتُ
الرصاص، يقبع جسّدٌ صغيرٌ على الأرض، شعريّ بيّ طويل، أقتربتُ بترددٍ أقلبُ
الجثة بسرعة، لأرى وجهها الملائكيّ يتقلص بالدم، وبقعة كبيرة من الدماء تسع
تحها بسرعةٍ قاتلة ...

لا أمل لا!!!!!!!!!!!!!! ...

استيقظُ فزعاً وأغرقتُ في نوبةٍ من البكاء الهستيري .

كانت ليلاً طويلةً جداً، أهرب فيها من كابوسٍ لأتعلق ببقعة فزعية يانسة،
يرميها بعدها النعاس في بؤرة الظلام، ليتلقفني كابوسٌ آخر ويلوكني ببطءٍ
مؤلم، وما بين كابوسٍ وكابوس، أغسل وسادتي بدموعٍ حارقةٍ أودع فيها
صرخات ألمي المكتومة .

فتحت فمي لأسأله ألف سؤال، قام من جلسته إلى جانبي ورَبّت على
كتفي ..

- "إرتاحي اليوم يا سهام، أخلدي للنوم وسأتي غداً لأطمئن عليك."

قال الجملة الأخيرة وهو ينظر لأبي الذي هز رأسه علامة الموافقة، وقبل
أن أتمكن من الاحتجاج خرج سمير فيما مدّ أبي يده لي بكوب من الماء ..

- "الطبيب قال بأنك بحاجة للراحة."

ساعدني على شرب بضعة أقراص، أفكاري كلها كانت مشوشة، و
أحاسيسي كانت تتراقص في جنبات صدري بجنون، كيف يجتمع هذان؟ أم
رجلين في حياتي!

- "أخلدي للنوم الآن يا حبيبي حمداً لله على سلامتكَ ."

لازال الألم الحنون يترقق في عينيه الحبيبتين، "أنا أسفة! لقد خذلتك يا
أبي" هتف قلبي بأسى وهو يخرج من الغرفة، وما أن أغلق الباب خلفه حتى
غرقتُ في نوبةٍ من البكاء الصامت، استمرت الدموع في الانسكاب و جسدي
بالارتعاش طويلاً حتى غفوت .

أطلت الشمس بتردٍ لترمي بأشعتها على أطراف نافذتي، تسللت ببطءٍ
كانما كانت تخشى الظلام المنبعث من ذاتي الجريحة، امتدّت أشعتها بهدوءٍ
حتى بلغت سريري معلنةً انتهاء معاناة ليلتي الطويلة، فتحت عيني لأطلق
مخزوناً جديداً من الصور و الذكريات، تناثرت الدموع على وجنتي، و من
كوابيسي الليلية إلى صحوتي النهائية تسلل الشعور الأليم بالانتهاك، و وجع
اللمسات القذرة على جلدي، جلدي الذي وددت لو أسلخه و أرميه بعيداً
راميةً معه كل بصماته و آثاره عليّ، لكم كنتُ ضعيفة !

دخلتُ إلى غرفتي بهدوءٍ نسمةً ربيعية، أغلقتُ عينايا بسرعةٍ مصطنعةً
النوم، مسختُ خدي المبلل بالدموع بصمت، و مرت أصابعها بين خصلات
شعري المشوّهة، اقتربت مني و قبلتني على جيبتي قبلهً ملانكيةً رقيقةً كلمسة
نور، تقلّصت عضلات وجهي بالأم و أفلت مني تحييبٌ حزين.

لكم تدهشني هذه الطفلة بجَدِّها و حكمها، أمسكتُ بيدي كأح حنون ..

- "حبيبتي ماما لماذا تبكين ؟"

لم أدر بهم أزد، فكرتُ و فكرتُ و فكرتُ... ماذا أقول لها؟ أقول أن أمها
ضعيفة؟ أنها لم تتمكن من أن تشتمه حتى؟! أقول لها بأنّها كانت أداة متعةٍ
لحيوانٍ يشري؟! أقول لها بأن الدنيا قذرةٌ حقيرة؟ ... ماذا أقول لها؟!

وضعتُ يدها على شعري مجدداً ..

- "الأنهم قصوا شعرك الجميل؟"

ضحكت من خلال دموعي ..

- "الآن خسرتُ منك، و بات شعرك أطول من شعري!"

- "حضنتني برقّةٍ مراعيةً جراجي.."

- "لكن شعرك بات يشبه شعربطة قصتي."

"أية قصة ؟"

لمعتُ عيناها و خرجت من الغرفة بسرعة، و عادت حاملةً كتاباً للحكايات
كالت سبق و اشتريته لها، فتحت الكتاب لتعرض علي صوره الملونة، لسبب
مجهول كان الفنان قد اختار لبطلة القصة شعراً قصيراً أسوداً، تزينه وردةٌ
عمراء كبيرة ..

- "أترين؟ شعرك صار مثلها لا ينقصك إلا الوردة !"

- "أنت أحلى وردةٍ يا حبيبتي."

ابتسمتُ و ضممتها لي بحب، أخرجتُ من جيبها مشطها الزهري و أخذت
تسرح خصلات شعري و هي تتمتم بكلمات أغنيةٍ مدرسية .

دخل أبي الغرفة و هو يرسم ضحكةً كبيرةً على وجهه الحنون ..

- "صباح الخير أيتها السيدتان."

- "جدي!" هتفت بشوق، حضنته و منحنته قبله الصباح "أترى! ماما

صارت تشبهها." أشارت إلى الصورة على كتابها بحماس، فهز رأسه يرضى،
لمحتُ نظرةً في عينيه كان يغالبها و هو ينظر لشعري ووجهي، كان يغالب
شعوراً بتت أعرفه جيداً بعد ليلةٍ طويلةٍ من الانهزام ..

- "اليوم ساوصل أمل للمدرسة، ارتاحي أنت يا حبيبي وسأبلغ المدرس
بأنك مريضة."

أومات برأسي فيما نظرتي متفحصاً بقلق، ستكونين بخير وحدك؟

- "نعم يا بابا، أنا بخير. لا تخش شيئاً."

- "أمل اذهبي وجيزي نفسك للمدرسة." قالها دون أن يرفق نظراته
القلقة عني في محاولة لقراءة أحاسيسي، خرجت أمل من الغرفة، جلس إلى
جانب سريري وأطرق رأسه بهدوء، النظرة الكسيرة عادت لعيني الحبيبتين،
أشحتُ بوجهي لأهرب من الألم المتدفق من قسماته كلها، لكن صوته الحنون
اجتاح صحابي جرحي ..

- "حبيبي، ما قد حدث حدث، لا قبّل لي ولا لك بتغييره، الله شاء أن
يمتحنك، كوني على قدر المسؤولية التي عهدتك عليها."

ثم تابع بصوتٍ خفيضٍ كأنما ليحدث نفسه "المؤمن ميتلى".

قام من جانبي واستطرد مغترباً الموضوع ومغترباً نبرة صوته معه...

- "سمير سيأتي اليوم ظهراً عند انتهاء نوبته."

نظرتُ له باستغرابٍ مُطلق، كان يتحدث عن سمير بألفيّةٍ جمّةٍ كأنه أحد
أفراد العائلة! ردّ على نظراتي المتسائلة:

- "سمير هو من أعادك لنا البارحة، لولا لطف الله واهتمامه..."

ابلع باقي جملمته كأنما ليحميني من مجرد ذكر الكلمة، أبي الحنون، لكم
والله، أملك، لكم يقتلني كوني أنا سبب أملك، حاولت العودة لأرض الواقع،
أريد أن أعرف المزيد...

"كيف عرف بوجودي هناك؟ وكيف تعامل معهم؟"

"طلب مني أن أتركه هو ليروي لك ما حدث." سكت قليلاً، بدى كأنه
يهم بسؤالٍ شيءٍ ثم تراجع، سكت لبضعة ثوانٍ ثم نظرتي نظرة عميقة ...

- "إنه إنسانٌ طيب."

- "لكنه من جُند الأسد!"

هل رأسه بصمت .

- "ستكونين بخير؟" سألتني مجدداً

- "نعم يا أبت لا تقلق."

منحني قبلةً على جبتي و خرج، بضعة دقائق و سمعت صوت انطباق
الباب، لقد رحلا، بدأت الأفكار السوداء تطوف بخيالي، هربتُ من سريري و
الطبيبي، لمحت كتاب القصص على الطاولة، أحقاً بتت أشبهها؟

وقفتُ لأنأمل شعري أمام المرأة، خصلات مشوهة شعناء، لم يكن قصيراً
كالفتاة الحلوة في القصة، كانت السادية الوحشية ظاهراً من الطريقة التي
أطلعت بها خصلاته، نزلت بنظري من شعري إلى وجهي، عيناى منتفختان
لكثرة البكاء، كدمّة زرقاء كبيرة على جانب ذقني، في حين انتفخت شفتي

السفلية مخفية قطعاً في جانبها، باعدت شفتي وتلمست كسراً في أسناني الأمامية، ترددت قليلاً ثم قررت أن أتابع جولتي الاستكشافية: خلعت ثوبي لأفاجأ بكم الضمادات التي تغطي جسمي، بدأت أنتزعها واحدة تلو الأخرى والمس جراحي، أضغط عليها لأستثير ألمها في انتقام غاضب، جراحٌ طويلٌ غانراً انتشرت لتغطي مساحاتٍ بأسرها في كافة أنحاء جسمي، لقد كان يمزق جلدي بمخالبة القدرة تمزيقاً! أما على صدري، فكانت آثار أسنانه ظاهرة في جراح متوحشة نهشت لحمي بجنون، ما سلم من الجراح كان مغطى بالكدمات، كان كل جرح يصبغ صورة أليمة، كانت كل كدمة تنبأ بصامت، لم أحتمل كم القذارة على جسدي، هرولتُ نحو الحمام، فتحتُ الصنبور لأشتم بغضب، المياه كانت مقطوعة! احتاج مني الأمر خمسة دلاءٍ من المياه لأبعد اللمسات المنسللة على جسدي، ولأموح آثار بصماته النجسة من عليّ، وما أن انتهيت حتى تكوّرت على أرض الحمام، ضمنت ركبتي إلى صدري، وأخذت أقضم أظفاري بقسوة حتى غفوت.

أيقظني صوتٌ لم أعرفه بالأ منذ زمن، صوتٌ انساب لروحي المحتضرة ليمنحها لمسةً حنونة، أحسستُ بشلالتي من الشجن تكسر قيد العتم، دفعه هادئٌ أذاب صقيع ذاتي، انقضت غيوم الغضب وتراجعت فتران العجز، هاجرت خفاقيش القسوة والكره وفتحت في قلبي برعم سلام، تمتمت الشهادتين والدموع تفيض من عيني بحب، كان نداء الأذان، يذكرني بأن باب الرحمن مفتوحٌ لكل مستضعفٍ كبير ...

كنتُ أحتاج له، لسنده ورحمته، لحبه وحكمته، نهضتُ بهدوء، ارتديت ثيابي، وضعت عليّ غطاء الصلاة ولبيت النداء، يا الله، إن كنت نسيبتك في غمرة ألمي فأنت لا تنسى، حكمتك فوق كل شيء، تردّد صدى صوت والدي

السرور: "المؤمن مبتلى" وتذكرت دعاء الرسول: "إن لم يكن بك غضب علي إلا أبالي" إرحمنا يا أرحم الراحمين .

كنتُ قد فقدت إدراكي للوقت، فقد جاؤوا ليجدونني على سجادة الصلاة أعمى وأبهل، وضعتُ حقيبتها جانباً وجلست إلى جانبي تشاركني الدعاء، فيما ينظر لي أبي نظرةً اشتقت لها، نظرة فخر .

فمت من على السجادة، لتفاجئني حبيبي بوردة حمراء...

"كما البطلة في القصة". قالت وهي تبتسم .

أحضرتُ مقصاً من على طاولتي ورّبت خصلات شعري على قدر الإمكان، ثم سلّمتُ شعري لتعمل مشطها فيه، ولتشبك فيه وردتها بحب، وما أن انتهت حتى سمعت دقات على الباب، ها قد جاء سمير .

استقبله والدي في غرفة الجلوس، فيما اتجهتُ أنا إلى المطبخ لأحضّر لهما القهوة، كان يحبّ قهوته سوداء...كلون عيني، هكذا كان يقول، كان يقول بأن طعمها المُرّ يتناسب في تناقضٍ متع مع حلاوة بسماطي وهي تتسلل إلى روحه، كان يقول أيضاً

هزئت رأسي بسرعة غاضبة، "أما زلت تصدقين؟" وأذت أفكارني في مهدها فيما تسللت إلى خيالي صورة وحشي كرهه يضحك، ويضحك، ويضحك مصوباً سلاحه نحووي و...

انسكبت القهوة على النار، سحبتها بسرعةٍ وأطفأت الغاز بسرعة، لئلا
أتمكن من سحب روعي من عوالم الألم بهذه السرعة، لئني أتمكن من إطفاء
ذكرياتي بهذه السهولة !

قدّمتُ لهما القهوة و جلستُ جانباً بهدوءٍ متحفّزٍ، دليلاً قهوتهما ببعض
الأحداث الرجالية السريعة .. " سعر صرف الدولار " " الاقتصاد " " الباذنجان
و الطماطم و طمع التجار " كانا يدوران بخفّةٍ بعيداً عن ذكر أيّ شيءٍ يتعلق
بالحرب، المعارك، و الجيشين، كانت الثلاث نجوم الحمراء و النجمتين
الخضراوين تطلّان على الحديث بانتظار اقتناص فرصة لتفجير ألغام الحوار،
لكتبا و كأني مواطنٍ سوري، كانا يجيدان مهارة الدوران حول المواضيع
"المحرّمة".

بقيتُ أتابعهما بحذرٍ منتظرةً لغمأ لم ينفجر، وضع أبي فنجان قهوته، تعلّل
بمكالمةٍ هاتفيةٍ كنت أعلم أنه لن يجربها، ثم انسحب خارجاً بهدوء .

قبعْتُ صامتةً لعدة دقائق، مشاعر كثيرةٍ مختلطة أخذت بناصية أفكاري،
فسبغت معها في أقانيم من ألمٍ يفلّته الترقب ..

- "أحضرتُ لك شيئاً .."

و سحب من جانبه مفاجأةً بيضاء معطرّة، طوقُ من الياسمين ! لقد أحضرني
طوقاً من الياسمين، تشابكت أيدي حباته البريئة بحب، مقدّمةً لي أسس
معاني الجمال، لم أستطع منع اللون الزهري من التصاعد إلى وجنتي
الشاحبتين " لقد تذكر " كانت كلمةً جالت في فؤادي بفرح طفولي، لكن

الورابي الجرح نفاها بقسوة، رافضاً أيّ بسمةٍ تخترق عزاء روعي في حضرة
" موت كرامتي !

احتفى البريق الوردى من عيني بسرعة، رميتُ الطوق أرضاً و تمتمتُ
بصوتٍ جليدي:

- " في بلدي يموت الياسمين ! "

ثم نظرت له نظرةٍ سخريةٍ جارحةٍ و تابعت:

- " لا بد من أنك خير من يعرف ذلك . "

أطرق رأسه بهدوءٍ فيما غامت عيناه السوداوان، بحثتُ عن نشوة الانتصار
في ذاتي، فرائيت ذاتي كسيرةٍ جريحةٍ أسيرةٍ إعصارٍ من الندم و الحيرة، لقد ألمني
ألمه بشدة، قررت أن أحررنا من قبضة استهتاري

- " كيف "

لم يكن من السهل علي أن أتابع، عضضتُ على شفطي لكن الجرح فيها
أجبرني على أن أفلتها بسرعة، رفع رأسه لي، أغرقني بنظراتٍ احتوت ألمي و
جنوني، لسببٍ غامضٍ أحسست بالأمان، استجمعتُ شجاعتي و أكملت:

- " كيف وجدتي، و أحضرتني هنا ؟ "

صمتُ لبضع دقائق كأنما ليحارب طيفاً من ألم، يكبل لسانه ..

- " تقصدين أبو ضبعو ؟ "

فاسمه ليس بخافٍ عني، ذاك السادئُ المجنون " تسلسل الغضب إلى صوته و
هم قبضتيه في حركة عصبية " لست أدري كيف أوقفتُ سيارة أجرة و
اسلت إليك، أخبرتهم أنك .. تردد قليلاً في الكلام، لكن نظرة متسائلةً مني
أجبرته على أن يتابع " أخبرتهم أنك عشيقه قائد الشرطة، فدخلوا عليه و
أوقفوه وبهذا تمكّنتُ من إنقاذك من برائته "

- "إذاً فالعاهرات فقط هن من يتمكّن من إنقاذ شرفهن ؟
بالمفارقة!"

قلتُ بغضبٍ مكبوت، لكنني ابتلعتُ جرحاً آخر سدّد إلى كرامتي الشهيدة،
أبضير الشاة سلخها بعد ذبحها !؟ لكن على الرغم من ذلك إلا أن شيئاً في
الحوار بدى لي كخبرٍ مُفرح، على الأقل لكل امرأةٍ شرقية ..

- "حين نادوا عليه بأن الأمر خطير، ذاك كان أنت ؟"
- "نعم .. ألف ألف إعصارٍ هانج غزى عينيه و هو يتمتم بأسف"
دخلتُ ورأيتك قابعة على الأرض جريحةً فاقدةٌ للوعي." فرّزت من عينه دمعاً
حاول أن يبتلعها بسرعةٍ و هو يستأنف بحزن "أنا أسف فقد تأخرت عليك ."

أقلتُ الخبر من شفتي بهدوء

- "لم تتأخر كثيراً ."

نظرتُ لي بتساؤلٍ فكزرتُ جملي و أنا أنظر في الفراغ ..

- "لم تتأخر كثيراً ."

مجرد ذكر الاسم كان بمثابة إطلاق ألف رصاصةٍ تستقر في صدري بعنفٍ
غادر، اقترب مني و حضن يدي في يده كأنما ليمنحني شيئاً من قوته،
استجمعت مشاعري المشتتة و هربت إلى قبضته الحنون على كفي، نظرتُ لها
مطولاً، ثم رفعت له عينين دامتتين و أمأت له بالم .

أشاح بنظره بعيداً، ربما لم يُطِق رؤية دموعي، بدأ روايته بصوتٍ بدا
مهججاً لكنه سرعان ما سيطر عليه ...

- "كنتُ جالساً في مناويتي المسائية حين رنّ هاتفِي، رأيتُ رقمك على
الشاشة حسبتُ أنك ..."

تردد قليلاً ربما لافتقاره للكلمات المناسبة، تجاهل إكمال جملةٍ كنتُ بأشد ما
احتاج لسماعها ...

- "المهمُ أن الصوت الذي جاءني من الطرف الآخر، لم يكن صوتك،
كان صوت شابٍ صغيرٍ يمس بتوتر: "تعرفُ صاحبة الهاتف؟" فرددت عليه
بقلق " من أنت ؟ " فردّد مجدداً بإصرار "تعرفُ صاحبة الهاتف؟" رددتُ
بالإيجاب .. " لقد أخذوها لحاجز مستشفى الشيحان ... أبو ضبعو، هي بخاطر
حقيقي، إلحقوها! "

عاد إلى ذاكرتي وجه شبيحٍ صغيرٍ و هو يطلب هاتفي المحمول متحاشياً
النظر إلى وجهي، تذكرت نظرة الاستعطاف التي منحته إياها، تراه هو ؟ تابع
سمير بهدوء ..

- "لم يُمهلي حتى أسأله أي شيء، فما أن أنهى جملته حتى أقفل
الجهاز تماماً، أما أنا فقد ارتعدت أوصالي كلها لدى سماع اسم أبو ضبعو،

ثم نظرت له نظرة عميقة، فهم مغزى جملي، لم أركز في ملامح وجهه لكن
يديه أمسكتا بيدي برفقة ورفعهما إلى شفثيه، سحبتهما غاضبة ..

- "ما الفرق؟ إن لم يلتصقي كليّة؟! إن لم ينل من شرقي فقد اغتصب
كرامي كاملة".

صرختُ فيه بغضبٍ و غادرت الغرفة حانقة عليه و على نفسي و على
الدنيا بأسرها، و في طريقي إلى الخارج تعمدتُ أن أدوس بقدمي طوق
الياسمين في محاولةٍ خفيةٍ لإزهاق روح برعمٍ ياسمينٍ بدأ بالتفتح في صحراء
روحي المعذبة .

أمضيتُ باقي اليوم في غرفتي أقطّر الذكريات و أعيقها في زجاجاتٍ من
غضبٍ و غل، حتى محاولات أميرتي الصغيرة لإخراجي من حالة التصمُّر التي
وصلت إليها باءت كلها بالفشل، فأخذتُ رسوماً و أقلامها و غادرت الغرفة
بصمتٍ حزين، أغمضتُ عينيّ بألم، "أسفة يا حبيبي، قلبي الآن لا مكان فيه
للسعادة، لا مكان فيه للأمل . " بعد قليل دخل والدي الغرفة، تحدّث كثيراً،
لكنني لم أتمكن من متابعة كلمةٍ مما قال، و عندما لاحظ شرودي المستمر
بدأ في تلاوة آياتٍ من القرآن، لم تتمكن الآيات الرحمانية من اختراق القشرة
الغليظة من الغضب التي غلفت روعي بإصرار، بل على العكس ... وددتُ لو
أصرخ في وجهه: " أنا لسا ممسوسة! أنا لم أجنُّ بعد! اتركني، اتركوني كلكم،
لست أريد أحد، لست أحتاج لشقيقة أحد!"

لاحظ الألم على ملامحي، ربّت على كتفي ورحل ليتركي للوثّة جديدةٍ أغرق
فيها بيأس، اختلطت الصور و المشاعر، صورة أبو ضيعو و هو يعيش على أربع،

عربي لحوي لينهش في لحمي، أصرخ بألمٍ فيما تختلط صرخاتي بضحكات
هموم، و هو يمسك برسن أبو ضيعو ..

اهم لم لا، فكلاهما انتهكي! الاول انتهك جسدي و عرضي، و الثاني انتهك
أفاس و أحلامي!

وقّات على بابي المغلق زادت من ضيق صدري و اختناق، حبستُ بداخلي
الكلاب من الصرخات و الدموع، و اطلقت عوضاً عنها رداً بصوتٍ جليدي:
" تفضل."

دخلتُ بوجهها الطيب و رائحتها الذكية التي يختلط بها ماء الورد مع لمحةٍ
بسيطةٍ من عطرٍ زهرميٍ قديم، كان القلق قد زاد من تفضّينات وجهها و أضفى
على بشرتها شيئاً من الشحوب الباهت، و ارتسمت في عينيها الحبيبتين نظرة
اللب طفولية .

- "سهام ..." غصّة بكاءٍ خنفت صوتها المرتعش، حاولت أن تتكلم و
من خانها صوتها عبّثت على شفثها و رفعت يدها إلى فمها كاتمةً شهقة بكاء .

كان لقلقها و ألمها فعل السحر، يقولون إن حضرت الملائكة غابت
الشياطين، ربما ذلك كان السبب، فملائكة خالي رضوى طردت كل شياطين
ذاتي، فأخذت الوحوش التي كانت تصلب ذاتي بقسوة تنسحب إلى جحورها في
أعماق ألمي، فذابت السياط التي كنت أجدلُ بها يقظتي، و انسابت على وجعتي
سحلاً من الدموع، و أنا أقفز من سريري لأرتمي في حضنها باكياً، بكيت كثيراً و
هي تارةً تبكي معي و تارةً تقبل رأسي، جلستُ و اسندت رأسي إلى حجرها و
أخذت تمسح على رأسي مداعبةً خصلات شعري القصير بأصابعها برفقة و

حنان، عدت بين يديها طفلة صغيرة .. صغيرة جداً، برينة جداً، نظيفة جداً،
تقلّصت مشاعري كلها حتى انحصرت في لهفة البحث عن كنوز الخالة رضوى،
... رفعت عيني إليها :

- "خالي أريد شيئاً من الحلوى".

ضحكت وقيلتني من جبيني، وأخرجت من حقيبتي كيساً كبيراً مليئاً بالحلوى،
جلست على سريري وأخذت أتناولها بهم، ومع القطعة الأخيرة أحسست
بالذنب، ناديت على أمل و منحتها لها، نظرت لي بقلق، فحضنتها بحب، و
حضنتنا الخالة حضناً جماعياً وهي تهمس بأذني ..

- "أنت بخير يا حبيبتي، نحن معك الآن، أنت بخير".

باتت خالي رضوى عندنا في تلك الليلة، غرقت في بحر حكاياتها الخيالية،
ما بين دليلة المحتالة والشاطر حسن، والسندباد البحري والقماقم
السليمانية المسجورة، تقيلت روعي النقاها الطفولية بسعادة بالغة، وغرقت
في عالم الأطفال الجميل، فوحوش الظلام مهما كبرت، ليس لها القدرة على أن
تمس الطفلة القابضة بداخلي.

- "شكراً خالي رضوى، أحبك كثيراً" تمتمت بصوت ناعم وهي ترفع
الغطاء حتى رقبتي، قبل أن أغمض عيني وأغيب في سبات طويل.

للأسف، لم يكن لخالي سطوة على عالم الأحلام، فبدأت أشباح الظلام
تنغلغل فيه بقسوة لتنهب ما كنت قد جمعت من راحة و صفاء، حشود
الربيع بدأت تتكدس على أبواب منامي، وما كان لي إلا أن أراقبها بهلع،
الصرخات المؤلمة، الضحكات الحيوانية، اللمسات المقرزة، السلاح، الدم،

الدمعان الخضراوان تلاحقاني وأنا أهرب في كل مكان، لأرى أسواراً من
الأسمنت تسد كل طرقاتي، أقع في هاوية تسحبني نحو الغرفة الإسمنتية، لا!
أدس مرة أخرى! اغطي وجهي وأسلم نفسي للبقاء، مغالب كبيرة تنفخ في
أذني بوحشية، أطلق صرخة عالية، لكن ... عوضاً عن الصوت، تصدر عني
رنة هاتفي المحمول، وأراه واقفاً أمامي، يبعد الوحش الأسود الضخم الجاثم
علي، نلقت مغالب بوحشية، يغرق في دمه، أنظر إليه بخوف، فيشبح بعيني
المرتلين عني ويعيد لي حقيبتي...

- "ما الذي جاء بك هنا؟! ابتعد! أهرب!"

- "لا أستطيع".

بردت عليّ بالأم، و يتهاوى أمامي على الأرض، لم اتوقع يوماً أن أتالم لرؤية
صوت شبيح ... حتى في أحلامي.

استيقظت بعد صراع طويل مع كوابيسي وأضغاث أحلامي، كانت قطرات
العرق تنفصد على جبتي، لقد كانت ليلة طويلة. أشعة الشمس كانت قد
المهقت الغرفة، نظرت إلى ساعتني، لقد تأخرت كثيراً في نومي، تأملت الفراغ
البرصعة دقاتي، ثم أمسكت بالهاتف ونظرة عزم تطلت من عيني، جيد، الشبكة
ليست مقطوعة: طبعاً كنت قد حفظت رقمه عن ظهر قلب، أدخلت الرقم
بسرعة، وما هي إلا ثواني حتى وصلني صوته من الطرف الآخر في مزيج من
القلق والسعادة ..

- "سهام! أنت بخير؟"

- "نعم بخير، سمير، إسمع أريد شيئاً مهماً."

- "لك أن تأمريني فقط."
"اتصلت بوالدك وبلغته بأنك ستخرجين معي قليلاً، سأمرُ عليك بعد نصف ساعة."

- "تذكُرُ الشاب الذي اتصل بك من هاتفي؟"
"تقصدين يوم الحادثة؟ طبعاً أذكره لماذا تسألين؟"
- "أريد أن أقابله!"
صمت لبضعة دقائق، لكنني كنت مصممة! كزرتُ مرةً أخرى بعزم:

- "أريد أن أقابله."
- "سأحاول جهدي، لكن، ليس لدي أي معلوماتٍ عنه!"
"تستطيع سؤال صديقك أبو ضبعو."

- "أبو ضبعو ليس ص...."
ارتدبت ثيابي وأنا أفكرُ بغضب، شبيحٌ أنتقذي! لا بد من أن هناك خطأ ما! وأسعره بمجرد وصولي إلى هناك.

بعد نصف ساعةٍ كنا قد أخذنا طريقنا متجهين نحو "حلب الجديدة"، لم أستغرب زيادة عدد "الذبابات الجوية المزعجة" فهناك في أرضٍ واسعةٍ كان من المفترض لها أن تكون أساساً للسوق العربية المشتركة، بات مكان تزويد الطائرات بالمؤن، ذلك بعد الحصار الطويل على المطار العسكري للمدينة. ذلك، لكنه يستحق.

خلال أقل من ساعةٍ رنَّ جرس الهاتف، كان هو على الطرف الآخر، أبلغني بأن وجهتنا كانت حاجزاً في منطقة "حلب الجديدة"
- "اسمه جعفر، تم تعيينه مؤخراً، ألا زلتِ مصممةً على الذهاب؟"

- "نعم مصممة."
كان سمير يسير إلى جانبي بصمت، عيناه السودوان تطوفان في الأفق البعيد كأنما يبحث عن أطراف حلجٍ هاربٍ أو كرامةٍ ضائعة، نعم أسأتُ له

كثيراً، وربما جرحته ! ... " يستحق ذلك " حاولت أن أقيع نفسي باحتجاج غاضب " هو مثلهم، من جند بشار، هو مجرم! هو أيضاً مجرم !" لكن روعي رفضت الاستماع للغيو عقلي المضطرب، فرمت ترهاتي في واحات الصدى، فيما بدأت شجرة ندم تنبت في داخلي، حاولت أن أعطي أوراقها تحت عباءة من كرامة و عناد، سررت إلى جانبه بصمت يغطي على ضجيج الصراع المتأجج في داخلي ...

كان الأمر حقاً فوق طاقتي على الاحتمال ! ففاضت الدموع من عيني كأمطار ليلية شتانية عاصفة، رفع يده، ومسح دموعي بأطراف أصابعه برقة، رأيت في عينيه كلاماً كثيراً، أغمضت عيني، تسارعت نبضات قلبي، ربتت على رأسي برقةً وابتعد متابعاً مسيره، قال لي من خلف منكبيه العريضين ...

- "سها م لقد اقترينا، لن يكون الأمر سهلاً!"

للمت شتات نفسي وتظاهرت بالشجاعة ..

- "أعرف ذلك، لا تقلق."

بضعة دقائق ولاخ الحاجز من بعيد، كشيالك عملاقة لعناكب متوحشة لتنظر بترقب مرور أي فراشة جميلة ليقتمصوها ويمتصوا منها نسع الحياة، لم ليرموها بعد ذلك جسداً بلا روح، ارتعدت فرائضي وأنا أنظر لهم من بعيد، واقفين حول الحاجز بلا مبالاة مزعجة، الوجوه اختلفت و لا شك، لكن الملامح كانت واحدة، لمجموعة من الوحوش البشرية .

لم يكن هو بينهم، كان يجلس بعيداً على جانب الرصيف ممسكاً بجهاز محمول قديم، تصدر عنه نغمات مؤال حلي قديم تنأى إلى مسامعنا محملاً بذكريات كثيرة من أيام بدت قريبة جداً، بعيدة جداً ... منعت دمعاً شريداً من التسلس لعيني وأنا أكاد أتمايل على لحن المؤال الهادئ ...

كثيراً، وربما جرحته ! ... " يستحق ذلك " حاولت أن أقيع نفسي باحتجاج غاضب " هو مثلهم، من جند بشار، هو مجرم! هو أيضاً مجرم !" لكن روعي رفضت الاستماع للغيو عقلي المضطرب، فرمت ترهاتي في واحات الصدى، فيما بدأت شجرة ندم تنبت في داخلي، حاولت أن أعطي أوراقها تحت عباءة من كرامة و عناد، سررت إلى جانبه بصمت يغطي على ضجيج الصراع المتأجج في داخلي ...

- "أرجوك لا تسي لي فلولا لما"

تحدثت أخيراً، تحدثت ليعبر عن قلقه من ردود فعلي المجنونة، يظن بأني ذاهبة لأقتنص من الفتى الذي انقذني ! لعله على حق، لعلي كنت أحاول أن أرفض فكرة أن يُنقذني شبيح، هل أنا بهذا الجحود ؟! لم لا؟! وأنا من أساء له هو شخصياً بقسوة، بعدما أنقذني من براثهم !! وللمرة الأولى ارتسمت في خيالي صورته و هو ينتشلي من عذابي، و يحملني بين ذراعيه الدافقتين، ليعيدني لحضن الوالدي و ابني ... نعم، كان هو من أعادني إلى أمل .

ملعونة هي الدموع التي تخرج من مآقينا عنوة لتفضح شعوراً طالما حاولنا إنكاره !

مسحت دمعتي بسرعة قبل أن يلتفت لها، لكن صوتي كان هو من خانني و أنبى صراع ذاتي ..

- "أنا أسفة!" تمتم بصوت خفيض .

تابع سيره الصامت لبضعة دقائق كأنما لم يستمع لما قلت، وقبل أن أكرر أسفي توقف، ورفع لي عينين دامعتين، أحسست بيدي حديدية باردة تعترض

"الأسمر اللون ... بالأسمراني .. تعبان يا قلب خيو و هواك رمانى... بابو
عيون وساع... حطيت بقلبي وجاع ... يعطيك سبع رباغ خيو من عين رسماي
... يا بوكمر فضة ... على ايش هالبعضة .. يعطيك لتترضى خيو من عين
رسماي .."

واصلتُ النظر إليه فيما قامت ثياب سمير العسكرية بدورها ..

- "مساء الخير يا شباب، نوذُ لو نتكلم مع جعفر قليلاً.."

نظرةً غريبةً متسائلةً ارتسمت على وجه أحدهم، ردّ عليها سمير بكلامٍ كثيرٍ
لم أعياً بأن أسمعه، لم أرفع ناظريّ عنه فيما كان الثاني يناديه، تشنّج عند
سماع صوته، خبّأ جهازه في جيبه و نهض بتوتر، نظر لي نظرةً سريعة، أدركتُ
بأنه تعرّف عليّ فوراً، وأقبل بخطى مترددة، دققتُ أكثر في ملامحه لأدرك حينها
لَمْ توصلت إليه عيني طلباً للمساعدة، بوجهه التحيل و عينيه الواسعتين
الزرقاوين، الشعر الأجدد بلون رمال باديتنا الشّماء، التقاطيع البيزنطية
البارزة التي تدل على انتمائه لقرى الشمال السوري، نعم كان من قاطني
ارباب حلب، لا شكّ في ذلك، لكن الأهمّ في كل ما رأيت كان الملامح الطفولية و
الطيبة التي تطلّ من عينيه رغمًا عن أنفه، كنتُ محتاجةً لأن أذكر نفسي مراراً
و تكراراً بأنني أنظر إلى شبيح، يساعديني في مهمتي بنطاله العسكري و السلاح
المعلّق إلى قميصه القطني الأسود، الذي طرّزتُ عليه يدٌ خبيرةٌ علم الأسد ذو
النجمتين الخضراوين ..

واصلتُ نظراتي إليه فيما بادره سمير:

- "جعفر، السيدة سهام توذُ لو نتحدّث إليك قليلاً.."

هل رأسه بهدوء و الشحوب يكسو بشرته الحنطية، فيما تقدمنا إلى مكانٍ
بعيدٍ عن الحاجز، اصطفت عليه بضعة مقاعد بلاستيكية إلى جانب نرجيلةٍ
بهاجبةٍ رخيصة، و طاولةٍ عليها بضعة كؤوسٍ فيها بقايا عشبة المنة.

جلستُ أنا و سمير فيما ظلّ هو واقفاً، بادرتنا بالقول و عيناه مثبتتان على
الأرض في تردد:

"أسف يا سيدتي، جهازك المحمول لم يعد لديّ، لقد اضطررت
إليه.."

فتحتُ فمي لأردّ عليه لكنه تابع بسرعةٍ و توتر:

- "كان لا بد لي من أن أعطيم نصيبهم من ثمنه، كان عليّ بيعه أنا
أسفٌ جداً .. و..."

نهض سمير و اقترب منه واضعاً يده على كتفه، جعل الفتى من اليد
الكبيرة على كتفه، كان يبدو كمن يتعرض للإساءة بصورةٍ مستمرة، لكن سميراً
ابلسم له مشجعاً مهيناً و قاده نحو كرسيّ ليجلس عليه ..

- "لا أظن سهام قطعت كل هذه الطريق من أجل جهازٍ محمول."

ثم نظرتُ لي، تململتُ في مكاني و هزرت رأسي موافقةً على كلامه، جلس سميرٌ
بدوره و أخذ الاثنان ينظران لي ليستمعا لما لديّ؛ بدى الأمر صعباً، لم أتمكن
من الكلام و أنا أحسُّ بنظراتهما المترقبة تخترق جمجمتي و تمسّط أفكاري،
بلعتُ ريقى بصعوبة، نظرتُ لأظاقرى .. و

- "لماذا ؟ لماذا اتصلت به ؟" و أشرت برأسي نحو سمير.

- "نستطيع أن نساعدك، نستطيع أن نجد لك عملاً شريفاً لتعيش منه أنت ووالدتك، نستطيع أن نساعدك لتخرج من هنا!"

نظرتي سمير نظرةً طويلة، لم أتمكن من فهمها، ثم نظرت لجعفر نظرةً تأكيدية،
تمتم جعفر بصوتٍ خافت ..

- "ليتني أستطيع، ليتني!"

- "لم لا؟"

- "هي تريد ذلك."

- "من هي؟"

- "أمي!"

جاء الرُّدُّ قاسياً بارداً، يحمل بين جنباته حكايةً طويلة، في حين ثَبَّتَ عينيه على بقعةٍ في الأرض و غرق مجدداً في الصمت، لكنني لم أكن لأسمع له بالتوقف عند هذا الحد...

- "أمك؟"

- "نعم أمي، أمي كان من طلب أن أنتسب للكتائب، بل وسعت شخصياً لذلك بوساطة حفنةٍ من المعارف الذين "خدموني" وساعدوا على استلامي للمهام بسرعة." كانت الكلمات تتدفق منه بهدوءٍ جليدي، كان هدهوياً مصطنعاً صاغها بإرادةٍ حديديةٍ ليغطي على البراكين الثائرة بداخله، كم هو قاسي زمن الحرب .

"لأجل النقود!" تمتم بصوتٍ لا يكاد يُسمع ..

النفض في جلسته وردّ بسرعة:

"طبعاً لا! ليس لأجل النقود! فأنا صاحب صنعةٍ كانت لتدرّ علي عشرات الألوف في وقتٍ كهذا."

- "لماذا إذاً؟"

- "للتأثر."

كانت آخر إجابةً أتوقعها، الأيسر والأكثر منطقية، ما الذي يدفع أمّاً لترمي اللذة كبتها في أتون الحرب بين المجرمين والمغتصبين؟ في ثقافتنا الشرقية المثقلة بالعلل، دوماً ما تسمع الكثير من هذه القصص الدموية ... طبعاً! التأثر

تململ جعفر في جلسته و نظرت لرفاقه الواقفين بعيداً ..

- "يجب أن ..."

- "التأثر؟" قاطعته بسرعة ...

كنت أعلم بأنه يحاول التملّص بعد أن لمسْتُ أكثر زوايا نفسه أمّاً و حساسية، لكن نظرةً منه لعيّني جعلته يدرك إصراري و بأنني لن أتركه يرحل حتى أسمع القصة كاملةً .

زفر زفرةً طويلةً وردّ بنبرةٍ حزينةٍ هادئة:

- "الثار لآخي علي، أخي كان أكبر مني بسنة، ما أن انتهى من دراسته الثانوية حتى بدأت الحرب، وفي منطقةٍ مثل منطقتنا وقبل دخول حلب في خضمّ المعركة كنا قد غرقنا في جَوْ من التوتر العام، نقص المحروقات، الطعام، الماء، وكل شيء، كانت حرباً باردةً على الجميع، ثلّةً من المرتزقة كانوا قد بدأوا يندسون في مظاهراتٍ باسم الثورة، وفي خلال المظاهرات يتم تصفية الكثير من الحسابات الشخصية في القرية تحت رايات الحرية .."

قاطعتُهُ بنبرةٍ غاضبة :

- "الثورة ليست ..."

- "أعلم يا سيدتي، أعلم، الثورة قامت ضد نظام كان قد أرهقنا أكثر مما أرهقكم، لكن لكل ثورةٍ متسلقين، وقد فاق عدد المتسلقين على الثورة عدد الثوار، خصوصاً عندما اختار الثوار الهرب واللجوء إلى تركيا، الأردن، و حتى لبنان؛ عندما قرروا أن يصبحوا نشطاء من الخارج."

- "أنا لزلت هنا!"

- "وكم تصادفين ممن هم مثلك؟"

كان سؤالاً صعباً، أسكتني ليضعة دقائق، وعندما هممتُ بالاعتراض كان سميرٌ قد سبقني ..

- "قلت بأنك تثار لعلّي؟"

- نعم، علي، عندما أنهى دراسته الثانوية كان محتوماً عليه أن يلتحق بالخدمة العسكرية، كان بإمكان أمي أن تساعد على السفر أو حتى أن ترتب

له مكاناً آمناً ليخدم فيه، على الأقل حتى تستقر الأوضاع قليلاً - على حد دورهما - لكنه رفض، قال بأنه رجل، وبأن عليه الدفاع عن بلده ."

صهمتُ قليلاً ثم نظرتُ بطرف عينه إلى سمير ..

- "أنت تعلم يا سيدي، من هم مثلك في الجيش روحهم مصبونة، أما من هم مثلنا، فيتم رميهم خطباً للحرب."

تهددتُ بعمقٍ و أغلقتُ عينيه كأنما ليستجمع أفكاره و ذكرياته اعتدل في مجلسه و أكمل:

- "بدأ رفاقه بالتساقط من حوله الواحد تلو الآخر و مع كل واحدٍ منهم كانت لهجته تزداد شدةً، كانت الكراهية و الغضب يتأججان بعنفٍ أكثر و أكثر في داخله، حتى تمكنوا من تحويله إلى آلة تدمير، كنتُ أحاول أن أناقشه في محادثاتنا القليلة، لكن الردّ كان دوماً يأتي عنيفاً غاضباً مانحاً، كان ما يوقفي كل مرةً نظرةً في عيون أمي، كان ابنها... نعم كان ابنها، كان عليها أن تدافع عنه."

- "تدافع عنه منك ؟ و أنت ألسنتُ ابنها؟"

- "أنا؟! أخذ ينفض غباراً غير مرئيٍّ عن بنطاله في حركةٍ متوترةٍ "عليّ كان ابنها، و بكرها، و حبيبها، و أمها في الدنيا ... أما أنا، فكنتُ ابنها "أيضاً" و عندما استشهد علي، استشهدت معه هذه ال "أيضاً " فسقطتُ معها "ابنها" سهواً."

كانت كل عضلة في وجهه تنطق بالألم والمعاناة، شابّ في عمر الضحك والنجلة والنظرات المختلطة إلى ابنة الجيران، شابّ كان له أن يتحسّر قلباً على علامات ضائعة في امتحان، تسريعة شعرٍ فاشلة، حبّ زميلة له على أقصى تقدير، لا أن يتحسّر على حبّ أمه! كان شاباً، في زمن الحرب، ملعوناً هي الحرب.

قطع سلسلة أفكارٍ مسترسلاً بصوتٍ هاديٍ قادم من أعماق شروده ..

- "لا ألومها، لا يسعني أن ألومها، حتى أنا لا زلت حتى اليوم أسير كوابيسٍ ليلية أرى فيها جثته، أرى فيها وجهه، سلّمونا جثته بعد ثلاث شهورٍ من اختفائه، كانت متفحمةً تماماً... أما وجهه ..."

صمتٌ قليلاً ليتمكن من السيطرة على صوته المهذج، بلغ ريقه و معه الكثير من الدموع ...

- "ملاح وجهه، نظرة الرعب عليها ... أنأتنا بأنه احترق حياً، قالوا بأنه استشهد في كمينٍ نصيبته إحدى العصابات المسلحة للحافلة التي كانت تقلهم لإحدى مهامهم، ١٦ قبضوا يومها، وأخي كان أحدهم؛ بعد الغزاء و الدفن، حبست أُمي نفسها في غرفتها لمدة أربعة أيام، و خرجت في اليوم الخامس مباشرةً نحو الهاتف، بشعرٍ هائشي و عينيّ حمراوين و صوتٍ قاسي، قامت بالكثير من الاتصالات، ثم أبلغتني بأن عليّ أن أذهب و أستلم سلاحي و مهامي، و قبل أن أسألها، أمسكت يدي و نظرت لي بعينيّ مليتتين بالدموع، و قالت لي بأن عليّ أن أثار لها، بأن عليّ أن أقتلهم جميعاً، من قتلوا أخي، من يقتلون بلدنا، من يريدون إسقاط رئيسنا، المجرمون و العملاء ... كانت كلّ حوارات و نقاشات أخي، بما فيها عباراته المكرّرة الملقّنة، كانت كلها قد انتقلت

الها، أما الحقد و الكراهية فقد تضاعفت عشرات المرات، بل ألوف المرات، في ذلك اليوم، و قفنت لأول مرة على حاجز ..

- "لكن أخاك كان متجّهاً لقتل أبرياء! ... أخوك كان .."

- "مجرماً؟ قاتلاً؟ من منّا ليس كذلك؟ ليس بانع الغبز قاتلاً؟ أليس بانع الطعام قاتلاً؟ ماذا عن بانعي المحروقات؟ تعتقدنهم أبرياء؟ من منّا ليس قاتلاً؟! من منّا ليس مجرماً في هذه الحرب؟!"

كانت المرارة تقطر من صوته فيما تقلصت أصابعه على ركبته بعنف، هممتُ بأن أقول شيئاً لكن سمير وضع يده على يدي و نظرتي، عيناه تذكرانتي "لا تسمي عليه" أطرقت رأسي و ابتلعت آلاف الكلمات و الأفكار، و بقي سؤالٌ واحدٌ لأسأله ..

- "لماذا إذاً! لماذا أنقذتني؟"

- "الاعتصاب، السرقة، التّهب، ليس هذا ما جنت لأجله" حوّل ناظره نحوي و تابع: "قلتُ لك، أنت حرمة، و أبو ضبعو، الكلُّ يعرفه، وحقنٌ سادّيّ مريض، الكثير منهم كذلك، أكثرهم كذلك .."

وضع مرفقيه على ركبتيه، متغلقاً على نفسه كأنما ليحجب نفسه عن مخاوف ترتسم في خياله ..

- "أنا هنا من أجل أُمي، أنا هنا من أجل أخي."

- "إذاً عليك أن تخبرها، يجب أن تقول لها بأن الشبيحة مجرمون، عليك بأن تقنعها بأن هذا الطريق خاطئٌ و خطير."

هز رأسه نقياً ..

لم يتغير الكثير في الروضة أثناء غيابي، في الواقع كان "سعد" هو التغيير الوحيد: طفلاً هادئاً يشعر بتيّ أجعد، وعينين لوزيتين تسكن فهما نظرة «دنيئة» لا تناسب وجهه الطفولي، وكعادة الأطفال الجدد، كان يعاني من أعراض "الأيام الأولى للمدرسة" متمثلة في بكاء متواصل ورفض لأي نوع من أنواع التواصل، مع الإصرار على الاستنجاد بماما طالباً العودة لها وللمنزل.

أمسكتُ بيده الصغيرة واتجهنا نحو غرفة المعلمات، بدأت بالمغريات المادية، من حلوياتٍ وهدايا، غالباً ما كانت هذه الرشاوي تفشل مع الأطفال، لكنها كانت مدخلاً نحو هوايتي المفضلة، استكشاف الطفل والبحث العنيد من مفتاحٍ لكسب ثقته، وبعد عدة محاولاتٍ فاشلة ..

- "ما اسمك؟"

واصل النظر نحو الباب كتعبيرٍ عن رغبته بالهرب، لكن يده كانت قد بدأت تستكين في يدي، الآن هو الوقت المناسب ..

- "لا بد من أن اسمك أحمد!"

ردّ عليّ بنظرة احتقارٍ غَشَّت العينين البنيتين الغاضبتين ..

- "رامي؟ ... سامي! .. هاني ... رامز .. حامد .. كمال .. جمال .."

بدأت النظرة الغاضبة تختفي ويحلُّ محلُّها نظرة استمتاعٍ جميلة

- "جميل .. سمير .. هدير؟ .. سامح! .. لا بد من أن اسمك سامح!"

- "تريد ثأر أخي لا يهمها أي شيءٍ آخر، هي تريد ثأر أخي ... أحياناً ... أحسنُ بأنّي أنا أيضاً أريده."

- "ولكن هكذا، ستصبح أنت أيضاً ..."

بريقٌ غريبٌ في عينيه رافق عقدةً بين حاجبيه ظهرت وهو ينظر للحاجز، فيما لاحظت بعيداً فتاةً شابةً تقترب من الحاجز وسط ضحكات الشبيحة الواقفين عليه، قام من على كورسيه بسرعة.

- "أسفٌ لأنني لم أتمكن من ردّ جهازك المحمول، كان عليّ بيعه."

مشى متجهاً نحو الحاجز، أرسلتُ له سؤالاً الأخير وهو يتعدع عنا بسرعة:

- "أنت شيعي؟"

استدار على عقبه، نظرتي باستغرابٍ ثم ابتسم وردّ بحكمة

- "أنا مسلم."

أحسستُ بوجنتائي تشتعلان خجلاً، فيما استدار جعفر وأكمل طريقه نحو الحاجز، بضعة كلماتٍ وضحكاتٍ ثم أشار لنا، استقبل بعدها بعض اللكزات القوية، مرّت الفتاة بأمان ...

نهض سميرٌ ونظرتي نظرةً طويلةً مليئةً بالمعاني، ثم مدّ يده لي ..

- "ساعيدك الآن إلى المنزل."

أوماتُ برأسي موافقةً وأنا أسلمته يدي، نهضتُ بهدوءٍ وكلمةً واحدةً تتردد في ذهني "اللون الرمادي."

هزُّ برأسه نافياً

- "ليس سامح هممممم .. ساعدني إذا، أنا قاشلةٌ في التخمين، ما اسمك؟"

حرك شفاهه ليرد، ثم ضمهما بسرعةٍ متراجعاً عن الفخِّ الذي كاد أن يقع فيه، ابتلعتُ ضحككُ ضحمةً كادت تُفُتُّ مني، ياله من طفلٍ ذكي..

- "حسام .. وسام .. عبد الله .."

بات كلُّ اسم يُتبع بـ (تو) نافيةً للإسم فيما بدأت بسمهً مكررةً ترتسم على زاوية فمه

- "عبد الرحمن .. عبد السميع .. عبد الرازق .. عبد المنعم .. حسن .. حسين .. سعيييييبييد"

شجعتني ضحكته على مواصلة اللعبة

- "سلوى .. رنيم .. سعاد؟"

مع استخدام أسماء الفتيات أخذ يضحك بشدة، عرفْتُ بأنني قد كسبت المعركة، حضنته وأكَّدتُ له بأن ماما ستعود لتأخذه، نظرةٌ حائرةٌ هامت في عينيه، لكنني كنت قد سبق وفتحت السبيل إلى قلبه الصغير، أخذتُ بيده وجلُتُ معه في رحلَةٍ حول الروضة، توقفتُ أمام باب صفنا وهمستُ في أذنه ..

- "اسمك سعد."

هزُّ برأسه وابتسم، المحطة التالية كانت مقعده فيما وقفت أنا عند السبورة

أواجه العيون البرينة والبسمات اللطيفة

- "أين كنت؟"

- "إشتقنا لك!"

- "لماذا لم تاتي إلى الصف؟"

لناثرت عليّ أسئلتهم، قلتُ لهم بأنني كنت مريضةً لأنني لا أنام ميكراً ولا أشرب الحليب، وقد تعلمتُ درساً لن أنساه، ثم شكرنا المعلمة المساعدة على رعايتها لهم وأرسل لها الجميع قبلاّتٍ طائرة

- "الآن من منكم ازداد طوله وأنا مريضة؟"

ارتفعت الأيدي الصغيرة تتناقص ببراءةٍ على منصب "الأكثر طولاً"، بعد الحصص الصباحية حلَّ وقت الفسحة، أخرج كل طفلٍ وجيبته لينطلق في حديقة المدرسة مجدداً نشاطه لإكمال يومه الدراسي، بدأتُ بترتيب المقاعد حين لاحظتُ سعيد جالساً على مقعده رافضاً مغادرته، ابتسمتُ بحنان، كان يرفض تناول وجبته في محاولةٍ أخيرةٍ لرفض انفصاله عن والدته، فهي المسؤولة عن طعامه، حاولتُ أن أقنعه بهدوء، اشتدَّت قبضة أصابعه الصغيرة على مقعده وتوتر فكّه الصغير، أدركتُ تصميمه على البقاء جانعاً بانتظار ماما، فمنحته قبلةً على وجنته، ومنحته مساحةً من الحرّة سامحةً له بالبقاء في الصف، وكتبت ملاحظةً لوالدته، لم يكن الأمر خارجاً عن نطاق المألوف، هو غالباً أمرٌ غريزيٌّ ربط الطعام بماما، غادرتُ الصف وأنا أحسب بأن الأمر سينتهي عند ذلك: لكن ما حدث في الأيام التالية كان خارج المألوف،

الإذاعة ... مركز أعنف المعارك وأقدمها في مدينة حلب. حتى أصبح اسم المنطقة لوحده كفيلاً بإصابتك بقشعريرة باردة، فالمعركة هناك كانت حامية الوطيس للسيطرة على أعلى بقعة في المدينة..

- "أرجوك ساعدنا!"

لا شيء في الدنيا أشدّ ألماً من حسرة أمّ على فلذة كبدها، لقد خسرت هذه الأم ابتسامة طفلها الوحيد! نعم، هي الحرب، ترسم المزد والمزد من مأسيا على خريطة حياتنا اليومية، وعلينا أن نتجاهلها ونغيّر خط سيرنا ببساطة، علينا أن نرسم ضحكة مزتفة على شفاهنا منتظرين اليوم الجديد، وتبقى المعادلة الصعبة، كيف نعلّم الأطفال مهارة تجاهل الألم والحزن؟ كيف نطلب منهم أن يزفوا واقع حياتهم؟ كيف نعلّمهم معاني الفراق والخسارة و استمرار الحياة من بعدهما؟ كيف لنا أن نفسّر لهم كل هذا الدمار؟ كيف لنا أن نفسّر لهم كل هذه الدماء؟ وأخيراً وليس آخراً... كيف لنا أن نبعد عنهم أيدي الخوف البغيضة، إذا كنا نحن لم نتمكن من الهرب منها بعد؟!..

رناّت على هاتفي المحمول انتشلتني من أفكارى، عرفت المتصل قبل أن أنظر للهاتف.. ربّث على كتف أم سعد، ووعدها بأن أبذل كل ما في استطاعتي لتعيد سويّاً لسعد طمأنينته وتوازنه، حملت حقيبتي ورحلت، نظرت إلى سجلّ المكالمات الفائتة، فظير رقمه على الشاشة الصغيرة، لقد وصل سمير ليرافقنا إلى المنزل كعادته في الأونة الأخيرة.

رافقتُ أمل و خرجتُ من المدرسة، ولم أتمكن من منع الابتسامة التي ابتلت على وجهي عندما رأته واقفاً على الباب، استسلمتُ للشعور اللذيذ، لقد توقفتُ مؤخراً عن لوم قلبي وبدأتُ أسمح لنفسي بالاعتناء على وجوده في حياتي، في حين اضمحلت أشباح الماضي في حضور أحاديث الحاضر و بسعة لمحات توحى بشيء من مستقبل: حتى أمل باتت معتادة على وجوده، حتى أنّها اختارت له إسماً خاصاً بها متجاهلة كل احتجاجاتي ومحاولاتي لنهبها من استخدامه ...

- "سيميم، أنت شرير؟"

اختصرت كل الأسئلة والأفكار ببراءة طفوليّة بحتة، إلتفتُ إليه لأسمع إجابته، ففي سؤالها قبعث أسئلة كثيرة طالما وددت لو أسأله، انحنى نحوها وهو يرسم ابتسامة رقيقة على وجهه ثم سأله و عيناه الساحرتان تفرقان في عينها الخلابتين:

- "ما رأيك أنت؟"

عقدت حاجبها علامة على التفكير، ثم هزت رأسها والجديّة تكسو وجهها الصغير:

- "لا أظن .. صممت قليلاً ثم استأنفت " لماذا إذا تعمل مع الأشرار؟"

"قالت ذلك وهي تلمس بذلته العسكرية" لماذا تلبس مثلهم؟"

حملها على ذراعه وتابع السير. كان ينظر لها مانحاً إياها كل اهتمامه وتركيزه، لكم تمنيتُ لو أكون طفلةً على ذراعه ..

- "أمل، من هم الأشرار؟"

جاء جوابها بعد دقائق من التفكير العميق :

- "هم من يؤذون الناس ويسببون الانفجارات."

- "وهل أسببتُ أنا أية انفجاراتٍ أو أؤذي أناساً؟"

- "لا أظن."

أحسستُ باستسلام أمل لنظراته العميقة، فقفزتُ إلى أرض الحوار، فأسنلتني لا زالت تحتاج لإجابات، لم أكن مستعدةً للتخلي عن فرصتي في الحصول عليها .

- "تعرف جيداً ما تقصده، تريد أن تسألك، لماذا أنت مع جند الأسد."

- "أنا لست مع جند الأسد يا سهام! أنا مع جند سوريا."

- "الأمر سيان."

- "إذاً تقولين بأن سوريا، هي سوريا الأسد؟"

- "لا طبعاً.. أعني ..."

تاهت الكلمات مني، زفرتُ باستسلامٍ وحركتُ يدي بعصبية

"المهم، لماذا أنت معهم؟"

"سبق وقلت لك، الأمر كان محض صدقة، الغالبية العظمى ممن هم في الجيش ما هم إلا مواطنون سوريون يؤدون خدمتهم العسكرية، وشاء لهم المدران يؤدوها في هذا الوقت بالذات ."

- "ولماذا لا تنشقون عنهم؟"

- "الانشقاق يعني الانضمام للجيش الحر."

هزئتُ رأسي بسرعة في موافقة متحمسة، أغرقني بنظراتٍ سبرت عينياني بعمقٍ متسللةً إلى أعماق أعماقي، ثم أبعد نظراته وشرد في الأفق البعيد ..

- "وإذا لم يعجبني ما يقوم به الجيش الحر؟"

- "كيف لا يعجبك! هم من يحررون البلد، هم من ينقذون الناس!"

- "قلتُ لك مسبقاً، بأن رقعة المساحة الرمادية باتت تتسع أكثر فأكثر

يوماً بعد يوم، واللون الأبيض يكاد يختفي، لم يتبق منه إلا القليل في قلبك ... عاد بنظراته إلى أمل ولثمها من خدها بحبٍ وهو يستأنف " وقلها ."

- "لكنك كنت لتخدم البلد!"

- "سهام نحن لسنا إلا رماداً لحربٍ أكبر منا جميعاً، و من يؤدُ أن يساعد البلد والناس بحقٍ سيقوم بذلك مهما كان موقعه أو انتمائه، ظننتُ جعفرأ علمك ذلك الدرس!"

هربت من نظرة عميقة أخرى من نظراته، فيما سحبتُ منه أمل
وصلنا إلى المنزل ..

- "لستُ أنا من سأل، أمل كانت تسأل."

ضحكٌ قصيرةٌ هربتُ منه وهو يراقب اختبائي خلف ابنتي، هربتُ من احمرار
وجنتي بسرعة ..

- "تريدُ أن تصعد لتشرب فنجاناً من القهوة؟"

- "سمسم أرجوك تعال معنا! سأريك واجبي، المعلمة قالت بأنني
شاطرةٌ جداً، وبأن خطي أحسن خطٍ في الصف"

ربتُ على رأسها بحب ..

- "اعتذري يا حبيبي، ربما في مرةٍ أخرى."

تلملم قلبي في مكانه، كان يودُ لو يقفز ويتعلق بكمته كما فعلتُ أمل،
مطالباً بالمزيد من لحظات السعادة المسروقة معه .

ربما يجيد سميٌّ قراءة الأفكار، أو لعل قلبي أطلن من عيني وهتف بما
رفض لساني أن يبوح به كبرياءً وكبراً

- "مشغولةٌ أنتِ عصر اليوم؟"

- "لا أبدأ."

ابتسم بسمةٍ تأوّهت روعي لوقعتها ..

- "سامرُ عليك في حوالي الساعة الرابعة والنصف، لديك مانع؟"

- "لا ساكون جاهزة ."

ودعتهُ وصعدتُ إلى المنزل وقلبي يغفق بشدة، كمراهقةٍ حدّدتُ للتوٍ أول
موعِدٍ عاطفيٍّ لها، كانت دقائق قلبي تتسابق مع الأفكار والاستنتاجات، فيما
اهمرت الأسئلة بغزارةٍ في داخلي شلالاً من بهجةٍ وترقّب، كانت السعادة
الندفج مني على صورة أغاني أخذتُ أذندن بها وأنا أحضّر طعام الغداء،
شاركتني أمل غنائي وسعادتي، غمرتني البهجة كلياً حتى أنني لم اسمع صوت
الفجارٍ واحٍ تلك الظهيرة، لست أدري إن كانت المدافع قد أخذتُ إجازةً
قصيرة، أم أنني كنتُ أشدُّ سعادةً من أن لاحظ أية غيمةٍ في سماء فرحتي
المشرقة .

أبي عاد مبكراً اليوم إلى المنزل، كان سميٌّ قد أبلغه بموعدنا، وحينما قمنا
للبديل ثيابنا وأنا وأمل استعداداً للذهاب، استوقف أمل قائلاً:

- "ماما ستذهب وحدها يا أمل."

برمتُ شفقتها بامتعاضٍ طفوليٍّ مشاكس

- "لكنني أريد أن أذهب أنا أيضاً!"

- "لا يا عزيزتي سنبقى سوياً أنا وانتِ."

ضمتُ ذراعها أمام صدرها بغضبٍ مستعدّةٌ لجولةٍ من النقاش و
الاحتجاج، وقيل أن اعترضت على القرار، نظر إليها ضاحكاً ضحكةً خبيثةً ..

- "سنذهب سوياً لشراء حذاء جديد."

وفي ثوانٍ تحولت النظرة الغاضبة إلى قفزاتٍ سعيدةٍ مبتهجةٍ وضحكٍ سعيدةٍ.

- "متى سنذهب؟! .. متى سنذهب؟! متى سنذهب!؟"

- "بعد أن تذهب ماما"

وبمجرد سماعها لذلك سحبتني من يدي وأخذت تدفعني نحو غرفتي وأنا غارقةٌ في الضحك ..

- "بسرعة يا ماما بسرعة، لا تريدان التأخر على سمسمة!"

دخلتُ إلى غرفتي ووقفتُ حائرةً أمام خزانتي، فأنا لم أتأق من أجل "أحدهم" منذ زمنٍ طويل، "من قال بأنني أودُّ أن أتزين من أجله!" خاطبتُ نفسي بصوتٍ مرتفع، معترضةً على منجى سبر أفكاري، وسحبت بنطال جينزٍ أزرقٍ و قميصاً أبيض عادياً، متمردةً على فكرة التزين، لكنني وجدت نفسي أطيل النظر إلى المرأة، وأزبد وشاحاً أزرق أنيقاً، لمسةً من أحمر الشفاه، بل و أيضاً شيئاً من الكحل الأسود لعيني، بعد ذلك أضفتُ بضعة رشّاتٍ من العطر، وإسورة ... وفي الواقع وعلى الرغم من كل محاولاتني للمقاومة، وجدتُ نفسي أتأق لأجله، ومع إدراكي لذلك تهبّدتُ تنهيدةً استسلام، و استبدلت البنطال بتنورةٍ زرقاء جميلة مزينةً بزهور أقحوانٍ بيضاء رقيقة، نظرتُ إلى مرآتي نظرةً أخيرةً، ابتسمتُ ابتسامةً رضى و خرجت .

- "والله يا ماما تبهدين حلوة كالأميرة"

أدرتني حلوتي بمجرد خروجي من الغرفة وأخذت تدور حولي بسعادة، فقد كنت قد حكمت على أنوثتي وأناقتي بالسجن المؤبد منذ زمنٍ مضى، استمتعتُ بفرحتها بي فيما كسانني شيءٍ من الزهو كوني لا زلت أحتفظ بشيءٍ من السحر .

وصل سمي في موعده تماماً، كنتُ قد تمنيّتُ وأنا مع أمل لو يملطني بهارات الإعجاب كما فعلت صغيرتي، لكن عيناه تولتا المهمة على أكمل وجه، فقلنا ما قالته أمل وأشياءٌ أخرى لا تقدر أمل أن تقولها، أما هو فكان يرتدي قميصاً أسوداً زاد من سحر عينيه الجذابتين، وبنطالاً عصرياً أنيقاً فيما سبقتُ شعره باستهتارٍ وقوضى محببة، كاد قلبي يذوب وأنا أتأمله، و حمدت ربي على أني لم اكتف ببنطالي القديم، منحني باقةً من الورود الحمراء زادت من احمرار وجنتي، تقبلتها بسعادةٍ فأنا أعشق الورود، أسندتُ يدي إلى ذراعه و نحن نتجه إلى أحد المطاعم القليلة التي كانت لا تزال تحافظ على أبوابها مفتوحةً بعيني لا يتماشى وظروف الحرب .

أولعبي كنتُ أهول الأمور؟

فقد فاجأتني كُثُ الناس الموجودين في المطعم الذي توقعت أن أراه مهجوراً ا يبدو أن الحرب لم تتمكن من قهر إرادة شعب حلب وتصميمهم على أن يعيشوا لذّة الحياة على الرغم من كل شيء؛

كان المطعم يُغرَق في الموسيقى الهادئة الجميلة فيما تناثرت الأحاديث بكافة أنواعها على الطاولات، ودغدغت رائحة دخان المعسل الكثير من ذكرياتي .

ابنهم ابتساماً ظافرة، نعم، لم يتغير، لا زال قادراً على تغيير الفصول في
الأيام بكلمة واحدة، والأدهى أنه كان يدرك ذلك، تمنيت لو أنني طلبتُ كوباً من
الشاي فقط لأغبطه !

وفيما أنا غارقة في حربٍ مع أحاسيسي المتناقضة ما بين التوترو والتمرد و
العشق الخفيّ محاولةً كيح جماع انفعالاتي فيما كانت تدفعني نحو حافة
الهلون، لمحتُه يشير بيده للنادل في إشارة خفية، همز الأخير رأسه وابتعد، وما
هي إلا دقائق حتى فهمت معنى إشارته، اتسعت عيناى وأنا أصغى لكلمات
الأنثوية المفضلة لي طوال سني طفولتي، تبعثُ بدلاً عن اللحن الناعس من
سجل المطعم:

" يا ريت بترضي .. يا ريت .. حبيبة قلبي تكوني .. بعمرلك بعيني بيت ..
حيطانوريف جفوني "

كان لازال يذكر أدق التفاصيل، وعلى الرغم من السعادة التي كنتُ غارقةً
فيها إلا أن ذكرياتي الحزينة أطلت برأسها فيما أخذتُ جردان الـ " لماذا "
تقرض في سعادتني بهم، نعم لماذا ؟! لماذا رحل حينها؟ أدركت بأن الوقت قد
حان لفتح تلك الصفحة القديمة، هنا، سأختم ذلك الفصل من ذكرياتي
أخيراً، أن لتابوت الألم أم يلفظ أحلامي المدفونة حياً بداخله، لا ظلام ولا
خفافيش بعد اليوم، لا أشباح ولا أغلال، لا خوف بعد اليوم، فلتاتي
العواصف إن شاءت، اليوم .. سأختم ذلك الفصل .

بدأت ألمم أطراف شجاعتي محاولةً أن أصيغ بعض الكلمات، كان الأمر
أكثر تعقيداً وصعوبةً مما توقعت، فهربتُ مني أفكارى وشردت عيناى لتتعلقا
بقناةٍ نحيليةٍ كانت تجوب بين الطولات بهدوء، ابتساماً هادئةً مرسومةً على

جلستُ بهدوء وأنا أعي نظراته المسلطة عليّ، بدأ الخجل يتسرب إلى ذاتي
المشربة بالقلق والتوتر، أخذتُ أصابعي تلبو بببتلات الورد الحمراء فيما هرب
نظراتي بعيداً، ومارس قلبي مهمة سرقة أنفاسي من صدري، أحسستُ بالدم
يفلي في وجنتي وأذني ..

تباً! ما هذه الحالة المراهقة وكيف أخرج منها ! كنت كمن يغرق في بحم
من الرمال المتحركة، كلما حاولت مقاومة فيض مشاعري وتوتري زادت
نبضات قلبي واحمرار وجهي ! بل وزاد الموضوع سوءاً الصمت الكثيف الذي
أغرقني به، تمكنتُ بعد عدة محاولاتٍ من رفع عيني نحوه لاستكشاف سبب
صمته ذلك، لأفاجأ بعينيهِ تراقبان توتري باستمتاع، أغاظتني البسمة
المرسومة على زاوية فمه بشدة، ازداد احمرار وجهي أكثر وأكثر وأطل الغضب
من كل قسماتي فيما رميته بنظرة ثائرة فضحك بشدة. كنت على وشك أن
أكيل له سيلاً من الاحتجاج، إلا أن قدوم النادل أنقذه من براثنى...

- " لا زلتُ تحبين قهوة الأطفال؟ "

نعم كان لازال يذكر كرهى للقهوة " الدنيا مرّة لا تحتاج لطعم القهوة
لتزيدنا مراراً " كان لا زال يتذكر اختياري لمشروبٍ آخر أسود أشد حلاوةً ولذةً
أشربه بهدوءٍ مدعيةً بأنه قهوة، سماها قهوة الأطفال .

وعلى الرغم من النجمة التي لمعت في سماء سعادتني لجملة البسيطة
تلك، إلا أنني كنت لا أزال غاضبةً منه، فتجاهلته وتوجهت للنادل :

- "كوبٌ من الكاكاو الساخن لو سمحت ."

« حيث اندمجت الجثث بالسكاكين، والرماد ببقايا حياة، والألم بعنصرية
« وشية وإجراج مرعب، كلهم ارتبطوا بكلمة واحدة فقط " الشيعة " .

- " لماذا فعلت ذلك ؟ "

سألني بهدوء وهو يراقبها وهي تكمل جولتها بين الطاولات

- " ألم تر ؟ "

- " أرى ماذا ؟ "

أطلقت الكلمة التي كانت تحوم بداخلي بكره و حقد ..

- " شيعة ! "

أطرق رأسه وهزه بحزن ..

- " لم تتعلمي شيئاً يا سهام ! لم تتعلمي شيئاً بعد ! "

اندفع الدم إلى وجهي وأنا أهتف بغضب:

- " يقتلون أملنا هم ! يذبحونهم كالنعاج، ويعلنون بأن حرهم على

السوريين لدعم بشار، وتقول بأنني لم أتعلم ؟! أنت من لا يفهم ! لتعد من

حيث أتت، لا نريدما، لا نريدكم بيننا، مجرمون قتلة ! لطالما أحيم شعينا و

حمامهم، لطالما احتضناهم في مدننا و حتى في بيوتنا، فباعونا بأبخس الأثمان،

الآن و هم يسرقون و يستبيحون و يقتلون ! تقول لي لم أتعلم ؟! أنت! تحسب

نفسك سورياً بحق ؟! "

وجه لطيف، لم تكن جميلة، ولم تكن قبيحة، كانت ملامحها من النوع الذي

تسناه بعد دقانق، لكن ما كان لافتاً فيها هو تلك السلّة المملوءة بالورود،

البيضاء التي كانت تحملها على ساعدها، تعرضها للبيع: هناك أشياء في الدنيا

مهما امتلكت منها تطالب بالمزيد، هذا كان حاله مع الورد، فعلى الرغم من

باقه الورد الحمراء الكبيرة القابعة أمامي على الطاولة، إلا أن عيناها تعلقنا

بالورود البيضاء كعيني طفلٍ لمح لتوه بائع حلوى يبيع أكواماً من ألواح

الشوكولا، إقترنت من طاولتنا وسألته سؤالها بصوتٍ روتينيٍ منخفض :

- " سيدي، تشتري وردة ؟ "

في ثوانٍ ذابت النظرة المفتونة من عيني وحلّ محلها نظرةٌ جليديةٌ قاسية

و أنا أحملق بالرمز الكره المعلق على رقبتها، كانت الكلمات تلمع على الفضة

باستفزاز صاخر " لا فتى إلا علي و لا سيف إلا ذو الفقار " منقوشةً على

السيف ذو الرأس المشطور... كلمةٌ واحدةٌ كانت تتأجج في داخلي لتصبّ أنهاراً

من البغض و الكراهية و الحقد ..

" شيعة "

و فيما همّ سميّ بإخراج محفظته ليبتاع لي الوردة التي تاقت نفسي لها،

أوقفه صوتي و أنا أرد بقسوة :

- " لا أحب الورد، شكراً . "

لمحت نظرتي معلقةً على سلسلتها، أطرقت برأسها و ابتعدت كما أقبلتُ

بهدهوء، و فيما كانت تبتعد ماجت في رأسي صورٌ حديثةٌ من القصير و بانياس،

تجاهل نبرة الكراهية البغيضة في صوتي و كل الاتهامات الدامية التي
رشقته بها، ورد عليّ بهدوء صاعق:

- "تبيع الورد يا سهام ! تبيع الورد ... تطوف بين الطاولات تسأل
هذا وذاك، تقف ذليلاً وتحتمل نظرات من هم مثلك لتكسب قوتها وتعيش،
و إن اختارت فيما بعد أن تذهب لتسرق وتقتل أو حتى تذبح، سيكون ذلك
لأنكم رفضتم أن تشتروا منها الورد فقررت أن تبيعكم الألم والدم، هي الآن
فقط تبيع الورد!"

لسبب ما سمعت في رأسي صوت جعفر وهو يبتسم ويرد عليّ ببساطة:
أنا مسلم ! " لكنني كأي أنثى مغرورة، رفضت صوته عني ورفضت الاعتراف
بالخطأ بل وتماديت، فاندفعت الكلمات مني رغماً عني ..

- "طبعاً ستدافع عنها، انت مثلها من جند الأسد!"
- "أهذا رأيك فعلاً؟"

أطرقت برأسي، عضضت على شفهي السفلى ونظرت بعيداً، مدّ يده عبر
الطاولة وأمسك بيدي مكرراً سؤاله بالحاح ..

- "هذا رأيك؟"

لمسّته على يدي زرعت راحة في قلبي، كان شعوراً ضخماً، أكبر من أن
تنسج روعي لأي شيء؛ إلى جانبه، شعور طرد كل المشاعر الأخرى، وافتشيت كل
مساحات ذاتي بأرنحية وثقة، عندها فقط تفتحت الكلمة في قلبي، على الرغم
من كل محاولاتي لوأدها: "لزلت أحبه، أنا أحب سمير!"

ماتت كل الكلمات بداخلي، فلم أتمكن من الرد عليه، فرفعت له عينيّ و
أعراضي يسبح منهما، وما أن قرأه حتى تألقت عيناه ببريق طالما رأيته في الكثير
من أحلامي، مدّ يده الثانية عبر الطاولة ليسمك بكلتا يدي ...

- "سهام ... تزوجيني!"

أحسستُ ببراكين تصب في عروقي و بأعاصير تعصف بكل أحزاني و
الكرهاتي، بكل ذرة رمادٍ في زوايا نفسي الكسيرة، سمعتُ أصوات تغريد و طافت
الفراشات في روعي، لم أكد أصدق أذني ... ألف نعم صرخ بها وجودي، وكادت
لعلها عيناي وتتبعها شفطاي، لكن ... هيات أن يفادر الجرح نفساً كسيرةً
بسهولة، فقد تجمعت كل الأشباح والأقدار، كل الصور والأفكار و أخذتُ
تصرخ في داخلي بعنف: "سيتركك مرةً أخرى، قاومي ... لا ! " ما كنت لأصدق
أو أنني كنت في وعيي، لكن الرعب أسكّر عقلي و شلّ أفكاري كلها، داعيتُ
عيناي ذكرى دموع ذرفتها في حارة حلبية قديمة، وارتسمت في خيالي صورته و
هو ينهب عن الطاولة ويرحل مع أنين قانونٍ شرقيّ عتيق .

لستُ أدري أيّ شيطانٍ كان ذلك الذي هتف من خلال شفطي ..

- "لا ليس هنا!"

لم أتمكن من احتمال نظرة الألم في عينيه، سحبته يدي من يديه و نظرتُ
بعيداً .

- "هناك يا سمير! يجب أن نعود لهنالك، لدينا صفقة علينا أن نغلقها
أولاً!"

«مري، زممتُ شفتي بتصميمٍ لأقاوم سيلاً من دموعٍ كاد يفيض وأنا أسمع رنة
الجزن في صوته:

- "بهناك تقصدين ؟"

قاطعته بحزم :

- "لستُ جباناً يا سهام ! تعرفين ذلك!"

- "دارُ الياسمين، الجديّدة، حلب القديمة."

- "تهرب من مخاوفك و تختين في زوايا الحياة، ترفض أن تحارب
الطوفان فتعيش على الهامش خوفاً من المواجهة، ماذا تسمي ذلك ؟!"

هتف باحتجاج ..

- "قد أهرب من الخطر، و أبتعد عن وكر الموت، أرفض أن أغوص في
قدارة احتمالات الفشل، لكنك يا سهام أشد مني جبناً!"

- "سهام المكان مدمرٌ بالكامل!"

هزت رأسي بعناد

رفعتُ عينيّ إليه باستغرابٍ لأراه يحدثُ في الأفاق سارحاً بعيداً عني ..

- "لا يهمي!"

- "نعم أشدُ جبناً مني، إن كنتُ أنا أهرب من مخاوفٍ أراها، فأنت
تهربين من رؤية الواقع، تهربين من المستقبل، تهربين من كل شيء، تحسبن
نفسك في عالمٍ خياليّ من الطفولة والبراءة، تغمضين عينيك و تمشين في
الحياة عمياء، مدعيةُ الشجاعة و أنت لا تجرئين حتى على فتح عينيك
للاعتراف بالواقع."

- "الجديدة منطقةٌ متنازعٌ عليها! فيها اشتباكاتٌ و معارك!"

- "لا يهمي!"

- "سهام!"

نظرتُ نظرةً لم أزمثلها من قبل، لم تكن نظرةً حزينةً أو يائسة، كانت نظرةً
لم أتمكن من قرائتها ..

ثارت ثائرة أشباح العتم في قلبي فأخذت ترقص بجنونٍ بين جنبات
نفسي...

- "أنتِ مصممةٌ على الذهاب لهنالك رغم الخطر؟"

- "لا زلتُ جباناً، لم تتغير!"

لا بد أن أسوأ صفاتي هو العناد، فعلى الرغم من ارتفاع اصوات نواقيس
الخطر بداخلي، على الرغم من نزيف قلبي و صراخه المستمر، على الرغم من
عينيه اللتان زرعتا فيّ ألف حسرة، إلا أنني سمعت صوتي وهو يرددُ يهدوء ..

تعمدتُ أن لا أنظر إليه، كنت أعرف أنني بنظرةٍ واحدةٍ لعينيهِ سأستسلم
تماماً، و أعود لحجز كل مخاوفي في سراديب السلك، لكنني كنت أرفض أن
أعود أسيرة مخاوفي، فإما أن أطردها بهانياً، أو أن أعيش عبدةً لها طوال

- "بعد الحادث لم يعد لديّ ما أخسره!"

نعم كان كلامه صحيحاً، كنتُ فعلاً جبانة.

وصل النادل بالمشروبات التي كنتُ قد طلبتها، ارتشف فتجان قهوته دفعة

واحدة ..

- "انتظري هنا لن اغيب أكثر من ربع ساعة."

تركني مع كوب الكاكاو الساخن ورحل ...

أخذتُ الأفكار تتقاذفي بجنون، ما بين موجةٍ من قلقي وخوف، وهاثبٍ ساخرٍ بداخلي " لن يعود " و بين أسفٍ على عنادي وإهاناتي له، سيعود! لا بد أنه سيعود، وعندها سأقول له، سأقول بأنني أحبه و بأنني موافقة، فاضبت دموعي و أنا أسرق رشفاتٍ من كوب الكاكاو، رفعتُ يدي إلى عيني لأمسحها بسرعة، الخط الأسود على يدي جعلني أتذكر، الكحل على عيني، أخرجتُ مرآة أمل الصغيرة من حقيبتي ونظرتُ فيها، كانت الصورة مألوفةً لدرجة الألم، العينان الملتطختان ببقايا زينةٍ ذبحتها دموع الحيرة ذاتها، هربتُ من الذكرى الأليمة بسرعة، مسحتُ دموعي و صلبتُ زينتي، أعدتُ المرآة إلى حقيبتي في الوقت الذي وصل فيه، لقد عاد مرتدياً بذلته العسكرية، طلب حساب الطاولة من النادل، سدّه ووقف ماداً يده لي:

هبعثُ في مكاني، الحيرة تغمرني و قلبي يهتف بإصرار "هيا! قولي له، قولي!"
الكلشفت أنني طلبتُ منه ما طلبتُ لأبعده، لأهرب منه، لكنني ما كنتُ لأتوقع
أهدأ بأن!

- "هيا بنا!" كرر الطلب ويده لا تزال ممدودةً لي

نهضتُ من على الطاولة كالمسحورة و مشيتُ إلى جانبه، أمسك بيدي،
أحسستُ بارتعاشي خفيف، لم أدر أبدز عنه أم عني، سرنا و الصمّتُ يغلّفنا و
هو يحتوي يدي في يده، يسحبني بقوةٍ و تصميم، وددتُ لو أعرّفتُ، زرعتُ "
أحيك" على لساني ألف مرة، لأعود و أبتلعها من جديد؛ كان بانتظارنا عربةً
بقودها أحد زملائه، جلس هو في المقعد الأمامي و جلستُ أنا في الخلفي، و
طوال خمس دقائق حاولتُ أن أتكلّم لكن كل محاولاتي ضاعت سدى، لقد
هربتُ مني كل الكلمات، استسلمتُ و قبعثُ في مكاني بهدوءٍ بانتظار أن نصبل.

مررنا بأكثر من حاجز عسكري، و على كلّ حاجزٍ كانا يبرزان بطاقتهما
العسكرية و يشيران لي على أنني " من طرف فلان"، و عندما وصلنا إلى مشارف
المنطقة، وقفتُ بنا السيارة و قال زميل سميرٍ و هو يرميه بنظرةٍ طويلة ..

- "هذا أبعد ما يمكنني الوصول إليه."

هزّ سميرُ رأسه بتفهم ..

- "متأكدٌ أنك ستكون بخير؟"

- "هيا بنا."

خرجتُ من السيارة التي ابتعدت ببطء فيما كانت عجلاتها تسحق الحصى الكاسية المتناثرة على الطريق، لم تكن الحصى فقط ما كان متناثراً على الطريق، أخذتُ أتفحص المكان من حولي بذهول، فإلى جانب أصوات تراسق الرصاص والانفجارات المتتالية، المشهد كان سريالياً إلى أبعد الحدود، كثيراً ما كنت أرى صوراً عن دمار بلدي، بل وكنت متابعاً لصور منطقة الجديدة بشكل خاص، فقد كنت أحسن بأن روحي ما زالت حبيسة أزقتها منذ ذلك اليوم .. كانت الصور تأتي مرفقةً بتعليقات مُرة، أحد التعليقات التي لا أنساها كان .. " هذا ليس مشهداً من أحد أفلام هوليوود، إنها سوريا !"

نعم لم يكن مشهداً هوليوودياً، لقد كان واقعاً، رائحة الدخان والبارود كانت واقعاً، ملمس الحصى تحت قدمي كان واقعاً، والخراب الممتد لأقصى مما يصل إليه البصر أيضاً كان واقعاً، لقد كان الواقع أكبر وأعنف من كل الصور التي رأيتها .

مدّ ساعده لاسْتند إليه، وضعتُ يدي عليه بهدوء و مشينا بين أكوام الحجارة ..

انصاف أبنية كانت قائمةً في مكانها لتشهد على قصص من كانوا يملؤونها صبغياً و حياة، لوحةً ماثلةً على جدرانها، خزائن مطبخ مدمر هناك، وبضعة كراسي متناثرة في غرفةٍ كان يبدو أنّها كانت يوماً غرفة جلوس، الطوابق السفلى كانت قد تعرضت كلها لعملياتٍ واسعةٍ من النهب، لكن الطوابق العليا الخطيرة كانت لا تزال تحافظ على بعضٍ من أثارها، خزائناً وسرير طفلي كان ما دفع إلى عيني دموعاً ابتلعها بسرعةٍ وأنا أشيح بوجهي، لم تحافظ كل

- نعم، لا تقلق يا وسام، شكراً لك، و سلامي لرائد و بهاء " اصطلح ابتساماً لا مباليةً على وجهه و تابع قائلاً بصوتٍ ساخر " قل لهما بأني سأغلبهما في " برتية التريكس " القادمة."

ضحك وسام ضحكةً مقتضية...

- " لا فائدة ترحي منك، لا يشغل عقلك إلا ورق اللعب!"

اختفت الضحكة كما بدرت بسرعة، وارتسمت على وجهه نظرةٌ جدية...

- " سمير، خذ حذرك!"

أوماً سمير برأسه بخفةٍ و هو يترجل من السيارة ويفتح لي الباب

الأبنية على ذكرى قاطننها، فأكثر الأبنية كانت قد تماوت بأكملها لتدفن تحنها تاريخاً بأسره، لتמות فيها ألف قصة كانت تُفزل بين جدرانها .

أصوات الرصاص كانت تضفي إيقاعاً حزناً على لعن مؤلم كانت تعزفه ذاتي بأسى، و أنا امشي متعثرٌ مستندٌ إلى ذراع سمير، كنت أطوف بعيني باحثة عن أثر حياة، أي حياة! هيات! حتى البيوت القليلة التي كانت لا تزال قائمة لتحمي قاطننها كانت تفوح منها رائحة الموت! لن يكفي أن أقول بأنني كنت في مقبرة كبيرة! لا، فالمقابر كان فيها شيئٌ من حياة، بضعة شجيرات هنا وهناك، ربما حتى شجرةٌ زرعتها أحدهم لتفيء قبر شخص عزيز، لكن هنا حتى أشجار الياسمين استسلمت و قاضت أنفاسها الأخيرة و هي تشهد على زمنٍ تحولت فيها السماء من عاشقةٍ ولبي تلثم وجنتها برقّة حبات المطر، إلى مجنونٍ ساديّ يصبّ جام جنونه عليها ناراً و رصاصاً و صورايخ .

طافت بخيالي ذكرى "الجديدة" كما كنت أعرفها، البيوت الجليلية الناعسة على طرف فسقياتها المدللة، أشجار الياسمين تعطرّ الجو برائحةٍ تمنح الجو سحرًا شرفياً لا مثيل له، و القناطر الرقيقة التي تُشعرك بأنك عدت عشرات السنين إلى زمن فوانيس ألف ليلة و ليلة السحرية ... أغمضت عيني فرأيت حلب فانتة ساحرةً تبتخر بدلالٍ تحت إزارها الشرقي الشفاف، و تلمع في عينيها نجوم الهوى و العشق، لكنني فتحت عيني لأرى حلب جسداً ميتاً، تنهشه كلاب الطمع بوحشيةٍ لا تُصدّق .

انهمرت دمعاً من عيني، مدّ يده و مسحها من على وجهي بهدوء، نظر إليّ بحنان، احتواني بنظرة و أخذني بعيداً، نحو مكانٍ لا موت فيه، أحسست بروحي تتسلل إلى داخل روحه و تختبئ بوجل، أمسك يدي برقّة و همس بحزن:

- قلت لك بأن المكان مدمرٌ بالكامل .

فتحت فمي لأرد، فصدرت عني شهقة بكاءٍ و فاض الدمع غزيراً من عيني، الفارب مني و ضممني إليه بحنانٍ مريباً على رأسي برقة .

ذهبتُ في حضنه، تملكني دقوه و قتل قشعريرة الخوف بداخلي ..

- "لا تخافي يا سهام، لا تخافي! أنا معك ."

حين هدأت دموعي، ابتعد عني بهدوءٍ و شدني من يدي ..

- "لم يعد المكان بعيداً، ستمرّ فقط بحاجزٍ آخر و .."

لمحتُ شيئاً غريباً على بذلته، بقعة حمراء صغيرة، أخذت تسع بسرعة ..

- "سمير، ما هذا ؟"

تابع نظراتي فرأى الدماء تنتشر بسرعة، نظر للأعلى و شدني خلف أحد الجدران بسرعة، نظري نطرةً لن أنساها ما حييت و هو يتهاوى على الأرض ..

- "سهام .. أحبك .. أنا أسف ."

لم تكن يده كافيةً لحجب البقعة على صدره، فالبقعة أخذت تسع و تسع حتى أغرقت نصفه الأيمن كاملاً، في حين صرّجت الدماء يده و هي تندفق من صدره بجنون، في البداية لم اتمكن من استيعاب ما كان يحدث، فنقافة الكابوي السينمائية علمتنا منذ طفولتنا بأننا نسمع صوت الطلقة، ثم يضع البطل مباشرة يده على جرحه، يصرخ، ثم يقع ..

لكن ثقافتنا كانت بعيدة كل البعد عن الواقع، في الواقع ... يهبط الموت عليك فجأة دونما تنبيه أو مقدمات .

موت؟ ... أجل قلت موت، فسمير كان قد تلقى رصاصة قناصي في صدره! فقط عندما استوعبت ذلك أخذت بالصراخ ..

- "سمير! لا أرجوك، سمير! اسمعي!"

شردت عيناها عني وسأل خيط رفيع من الدماء من شفتيه، كان علي أن أفعل شيئاً، مجدداً ... كانت ثقافتنا المشوهة قاصرة لتتمكن من مساعدتي على استيعاب الموقف، فحسبت أنني ككل أبطال الأفلام سأتمكن من التخطيط بهدوء، و سأستجمع بطولتي وحي لأحمل سميراً إلى بر الأمان .

لكنني حين حاولت لف ذراعه حولي لأحمله، أو حتى أسحبه، أدركت ضخامة وهم كلمة البطولة، وعجز قدرتنا البشرية، فقد خرت قدماي من تحتي وهاويينا سوياً على الأرض وسط صراخي ودموعي، لكنني لم أياس! حاولت أن أجزه من ذراعه، ثم من ثيابه، فتمزقت ثيابه، و وقعت مرة أخرى . امتزج الهلث بالصراخ بالبكاء، نهضت مرة أخرى و عاودت سحبه مجدداً، سحبت و سحبت حتى خارت قواي تماماً و وقعت على الأرض، لم أكن قد تمكنت من تحريكه أكثر من بضعة أمتار، أحسست بالعجز التام فيما كانت الدماء تنساب من الجرح بعناد، دفنت رأسي في جسده و أجهشت بالبكاء، انتفضت و أنا أحسن بلمسة يد على كتفي، رفعت عيني لأرى شاباً ملثماً يضع سبابته على موقع شفتيه طالباً مني أن أسكت، ثم أشار لي بأن أبتعد، نهضت بسرعة و هرولت مبتعدة فيما أسند هو ذراع سمير الأيمن إلى كتفه، و طلب مني أن أفعل المثل بالذراع اليسرى، حملنا سمير سوياً فأشار إلى منزل قريب،

بدأنا بالتحرك نحوه بحذر، و ما هي إلا دقائق و كنت اقف إلى جوار سمير الممدد على سرير معدني صغير، فيما تناهى إلي صوت جدال كان يدور في الغرفة المجاورة .

- "قلت بأنه من جيش بشار؟"

- "نعم، العلم ذو النجمتين الخضراوين."

- "و من ضربه كان قنّاص الجيش الحر؟"

- "نعم، تلك بقعته ."

- "ولماذا إذا نظنّ بأنني سأساعده؟! ما دام الجيش الحر قتله فهو يستحق!"

- "أكان همام يستحق الرصاصة التي وسموها على جبينه؟!"

- "لا طبعاً! همام كان حالة فردية، الأمر مختلف تماماً، همام لم يكن من جند بشار!"

- "ألقي عليه نظرة واحدة فحسب! الرجل يموت!"

- "هو كلب و سيموت كما يستحق ."

- "نسيت قسم أبقراط!"

- "لا لم أنمن، ربما أنت نسيت بأنني لم أتل القسم، بأنني لم أكمل دراستي، بأنني لم أنتج بسيمهم!"

- "ليس بسبيهم، بسبب الحرب."

- "هم من يقيم الحرب علينا، أم نسيت بأنهم قتلوا أبي! أم لعلك نسيت شهور العذاب التي قضيتها في سجونهم، لا لشيء إلا لأنك ربيت لحيه!"

- "لا لم أئن، لكن!..."

كانت نبرة صوته مشوبةً باليأس والاستسلام، ثم ساد بعدها صمت رهيب، أحسست بجدران الغرفة تكاد تطبق عليّ وتخنق أنفاسي، لا! لن يتركه هكذا، نظرتُ إلى وجه سمير يكسوه شحوبٌ مخيف، ومع صوت انفجارٍ آخر تناهى إليّ صوته خافتاً وهو يتابع بصوتٍ أقرب للتمتمة ...

- "لم تتمكن من تركها هكذا! كان لا بد من أن أساعدها."

- "وها قد ساعدتها كالفارس المغوار، الآن اتركه ليموت كالكلب، موت أي واحدٍ منهم يعد مغنماً لنا، حريٌّ بك أن تكون سعيداً!"

و مع تلك الجملة، اندفعت لذهني عشرات الصور، صورة زميل سمير العلويّ على الحاجز وهو يسلم طفلاً كرةً صغيرةً وهو يتسم بحنان، صورة جعفر وهو يتفق "أنا مسلم"، صورة بنتٍ شيعيةٍ نحيلةٍ تدور بين الطاولات بسلةٍ ورد، ونظرة كسيرة، وصوت سمير الحزين يلاحقني: "لم تتعلمي شيئاً بعد!" تعلمت!... تعلمت!.. أقسم بأنني تعلمت! أردتُ أن أقفز وأقول لهم بأن سمير ليس كلباً، وبأننا كلنا رماذ لحربٍ ضخمةٍ عنوانها الجشع والدمار، أردتُ أن أقول لهم بأننا كلنا نحب سوريا، وبأننا نحاول أن نحميها كلٌّ من موقعه، كلٌّ حسب رأيه، كلٌّ حسب انتمائه وقناعته، نحن أيضاً نحب سوريا وشعبها، هو أيضاً، هو أيضاً يحبها... سمير ليس كلباً! سمير... سمير... سمير! سوري!

اندفعت خارجةً من الغرفة نحوهما، نظرتُ لهما و حاولتُ أن أقول الكثير والكثير مما كان يفرض بداخلي، لكنني لم أتمكن من النطق إلا بكلمةٍ واحدة

- "أرجوك!"

غرقتُ بعدها في بحر من الدموع، تتهدّ تهيدةً استسلامٍ و تقدمي إلى الغرفة الضيقة حيث يقبع سميرٌ يهدوء، أخذ يفحصه بيدٍ خبيرة، أخذتُ نظراتي تطوف بين النظرة الجديّة على وجهه وبين وجه سمير الشاحب، أبحث عن أيّ بادرة حياة، عن أيّ بارقة أمل...

ثوانٍ.. هي كل ما يفصل بين البقاء والرحيل، ثوانٍ.. هي كل ما يفصل بين الحياة والموت ..

- "ما كنتم لتحتاجا إليّ على كل حال، لقد مات قبل أن يصل لهنّا."

- "مات؟!!"

كزرتُ الكلمة وراءه مشدوهة، ماذا يعني ب"مات"... سمير؟ رحل؟! مرةً أخرى؟!... تجاهل نظراتي التائهة و خرج من الغرفة، فيما وقعتُ على ركبتيّ لينطلق من حجرتي صراخٌ وحشيّ حررت به كل ألمي وعذابي، وسط الدمار.. والخراب.. وسط أصوات الرصاص والموت... كان صراخي هو الصوت المنطقي الوحيد.

كل المشاهد التالية كانت غارقةً في ضبابيةٍ مبهمة، جئةً، هاتفةً، زملاؤه يتوافقون الواحد تلو الآخر، يكلموني كثيراً... ماذا يقولون؟... ماذا يفعلون؟

- "لم يعد لدي ما أخسره!"

- "سهام .. أحبك .. أنا أسف"

- "لم يعد لدي ما أخسره!"

- "سهام .. أحبك .. أنا أسف .. أحبك ... أنا أسف ..."

فوضى الكلمات والأصوات تناثرت بداخلي وغلقت وجودي بالكامل، فيما وقفت جامدة، صدفة لروح رحلت، أدرك الباقون ذلك فتركوني وحيدة قابعة في زاويتي بهدوء ... لقد رحل ! .. استحضرتُ بسمته بما تبقى لي من حياة، لمسة يده على يدي ..

- "سهام تزوجيني أحبك .."

" أحبك يا سمير! أحبك ولم أكف عن حبك يوماً! لا تركني أرجوك! عد إلي .. كلمات شققها دمة على خدي وهي تهمر باستسلام، بحثت عن بريق عينيه السوداوين، لكن العينين كانتا خاويتين ، لقد غاردهما إلى الأبد، لقد رحل ! .

في الأيام التالية وقعت أسيرة أحاسيمي غريبة غير مفهومة، ففيما كانت النظرات القلقة تحاصرني في كل مكان، تابعتُ أنا حياتي بهدوء لا يُصدّق، لم أتهاوى عاجزةً غارقةً في بحور الحداد السوداء، لم أشعر بذاتي تتدمر بعنفٍ ولا بروحي تلسحق بصخب، فبدلاً من أن تتفجر آلامي دموعاً وعذاباً أخذت نلّسل في داخلي و تتقاطر برتابةً هادئة، كان كل نَفَسٍ أطلقه يخرج مغلفاً بأكوامٍ غير مرئيةٍ من اليأس المرير، كانت التهديدات تتسرّبُ خرساء من بين شفاهي لتضيق في الأثير بصمت، فيما تزحف جثث الذكريات ببطءٍ موجهٍ لتمسح أي أثرٍ للحياة على أرض أحلامي، لم يتبق بداخلي قلبٌ جريحٌ ليصرخ مؤثباً عليّ أحزاني، فقد رحل قلبي معه، فتابعتهُ مسيرة الأيام بروحٍ خاويةٍ مثقلةٍ بالإحساس بالذنب، لم لا أبكي سميحاً؟ لم لا أصرخ محررةً روجي من سلاسل البؤس البغيضة؟ كيف .. كيف أكل وأتحدث يومياً؟ كيف الأعب أطفال المدرسة؟! والأدهى! كيف أمارس جريمة الضحك بتلك البساطة !!

كان الموضوع فوق قدرتي على الاستيعاب، لكنني على الرغم من ذلك استمررتُ بهدوءٍ أزاحم شبح الدموع الناضبة في ذاتٍ كسيرة، فأنا لم أعد أحمي الحياة، بل كانت الحياة تمر من خلالي بصمتٍ بعد أن غرقت كل أحاسيمي في غيبوبةٍ طويلة .

حانتُ متي التفاتةً للمرأة الجانبية في السيارة، كان المشهد مألوفاً، فقد اعتدتُ مؤخراً على التحديق في المرايا، كنتُ أتدرب يوماً على الابتسام لأخرج لهم كما يريدوني، قويةً صامدة، مع الوقت أصبحت خبيرةً بالابتسام، كنتُ

أمنحهم من البسمات ما يشاؤون، متجاهلاً واقع أنني كنت مع كل بسمه اقتطع قطعة من روحي وأرميها لكلاب الأهزام.

أشعثُ بناظريّ عن المرآة وأخذتُ أحدقُ بتنورتي بهدوء، لكم أكره اللون الأخضر! تقلّصتُ أصابعي بحقدٍ على اللون المستفز، اقتلعتني صوت والدي من سحابات الكراهية الصامتة ..

- "سهام، لقد وصلنا."

ارتديتُ ابتسامتي بسرعة، شكرتهُ ونزلتُ مع أمل إلى المدرسة، ذهبتُ إلى صفها بسرعةٍ فيما أخذ الأطفال بالتوافد، لسببٍ ما كَفَّ الأطفال عن معانقتي، حتى أن بعضهم بات يتجاهل إرسال تحية الصباح لي، كانوا يتعدون عني بصمتٍ مشابهٍ لصمتي، ربما كان السبب في بسماتي، فعلى الرغم من نجاح تلك البسمات المطلق مع الكبار، إلا أنّها ما كانت أبداً لتخدع الأطفال، فقد استشعروا من خلالها أكوام القمامة بداخلي، قمامة لا يشعرها إلا أنا، و هم: حتى أمل ... حتى أمل بدت بعيدة جداً!

جلستُ في غرفة المعلمات بانتظار موعد الحصبة الأولى، وأنا ألوك بقايا كلماتٍ أسمرها أبي لي بعد رحيل سميرٍ ببضعة أيام ..

- "لقد خطبكِ مني."

- "من؟"

- "سمير."

أغفيتُ الارتعاش في يدي خلف صفحات كتاب كنت أحمله في يدي وركزت المراتي على سطورهِ باهتمامٍ كاذب، صمّتُ لبضعة دقائق ثم تابع كلامه بهدوء:

- "فكرتُ كثيراً قبل أن أقول لك، لكن ... من حقك أن تعرفني! في أول يوم رأيتُه وبعد حادثة أبو ضبعو مباشرة، وضيعناك في غرفتكِ وخرجنا للجلس سويًا، حتى لي الموقف بسرعة، ثم طلب مني يدك، استغربتُ طلبه كثيراً فأخبرني بأنكما كنتما متحابّين أيام الجامعة، وبأن غلطة عمره كانت التخلي عنك، أخبرني بأنه لم يتمكن يوماً من أن يُبعدك عن قلبه حتى كتب الله لكما أن تلتقيا مجدداً، وبأنه لن يسمح لشيءٍ في الدنيا أن يفرّقه عنك مجدداً"

رفع فنجان القهوة إلى شفتيه، ارتعاشاً خفيفاً حانت من يديه، انشغل بإخفائها ولم يلاحظ الدمعة التي مسحها بسرعةٍ من على طرف عيني ...

- "تحدث عنك كثيراً، كان يحبك بحق، كان يطالب بموافقتي ومباركتي، و عندما أخبرته بأن لا مانع لدي، طلب مني أن أخفي الأمر عنك، فهو لم يكن ليخطبكِ وأنتِ كسيرةٍ حزينة، كان يوّد أن يساعدك على اجتياز أزمة الثقة والأمان بعد الحادثِ الكره أولاً .."

- "لقد طلب مني الزواج."

- "أعرف، فقد اتصل بي يومها، كان صوته يفيض حباً وسروراً، أخبرني بأنه سيطلبك للزواج، لذلك لم أسمع لأهل بأن تراقبك."

- "ليتك سمحت لها! ليتها أنت! ربما لو أنت ما كنا"

سحبت نفساً عميقاً وأغمضتُ عيني، لأطلق كلماتي لتنفجر من فمي
كالرصاصة :

- "ربما ما كنت لأقتله .."

صوت بكاءٍ خافتٍ أوقفني عن اجترار ألمي، لا، لم أكن أنا، فقد تدربتُ جيداً
على الإمساك بزمام أوجاعي، الصوت كان أتياً من زاوية الغرفة، كانت زميلي
هلا قابعةً على أحد الكراسي المترامية في الغرفة، لا بد من أنها دخلتُ وأنا
غارقةً في ذكرياتي، حدثتُ نفسي بذلك وأنا أستغرب لرؤية الانهيار مرسوماً
بقسوةٍ على كل تفصيلةٍ من تفاصيل وجهها، فيما كانت الدموع تفيض من
عينها بغزارة، لمحتُ نظرتي المتسائلة فدفنتُ وجهها بيديها، وعلى الرغم من
أنني كنتُ أهرب من أيِّ شكلٍ من أشكال الاحتكاك العاطفي إلا أنني لم أتمكن
من مقاومة رغبتي في الاقتراب منها والتربيت على كتفها بحنان، وما أن فعلتُ
حتى علا صوت نحيبها وهي ترمي برأسها بين ذراعي، أحسستُ بدموعها تساقب
على يدي، وإذ بأوجاعي كلها تتسرب من مسامي لتمتزج مع الدموع الهاربة،
أخذ الحزن يتسلل من داخلي إلى عينها العسليتين الغارقتين في بحر الألم و
الشكوى، لم يطل الأمر كثيراً، فلم تلبث أن استجمعت شتات نفسها وهدأت .

أرسلتُ عينها لي نظرة اعتذارٍ وهي تسمح بدموعها بمندبلي صغير، و
تعدلت في جلستها لتبدي بالكلام ...

- "زوج أختي "رببال" كان قد فقد منذ خمسة شهور، كان ناشطاً في
منظمة إنسانية لإغاثة النازحين، يوزعون عليهم الطعام والأغذية الصوفية،
كان يعمل بأوراق رسمية، و بموافقة من المحافظ نفسه ! لم يكن يعمل إلا

بها يتوافق مع قوانينهم، لكنهم وضعوا اسمه على لوائحهم، و على أحد
أواجههم سحبوه والهمة "إنسان .."

كانت كلماتها تخرج قصيرةً لاهثة، محملةً باكوام من المرارة فيما كانت عينها
تراقصان في محجرهما بتوتر، صممتُ لبضع ثوانٍ لتستجمع أنفاسها وبزفرةٍ
واحدةٍ تابعت فيض كلماتها ..

- "كمية الناس التي تذلت لها أسرتنا ! و النقود التي تم ابتزازها منّا
لنعرف عنه أيُّ شيء ! أين هو؟ ما همته؟ ماذا يريدون منه ؟ هي سوقٌ
للتجارة بأخبار المفقودين و حريتهم هذا ما يعملون عليه لصوص الأمل، لكننا
ظللنا نحاول و نحاول، و مع كل طرف خيطٍ جديدٍ تتجدد الخيبة و اليأس،
حتى البارحة .."

تناثرت دموعها مجدداً غزيرةً كأقطار الشتاء، ربتُ على كتفها فيما تابعتُ و
الغصة تقرض حنجرتها ..

- "البارحة وصلتُ لنا أغراضه، أغراضه فقط، فقد " تخلصوا من
الجنة " لقد مات يا سهام ! قتلوه و لم يمنحونا حتى فرصة دفنه ! يعلم الله
إن كان يقع في جوف بئر أو في قاع نهرٍ أو محرقة!"

أطرقْتُ برأسها، أحسستُ بأسراب اليأس تطوف حولنا لتبتلع من على
وجهينا كل الألوان ..

- "والأسوأ من ذلك كان كيفية موته ! تعرفين كيف مات؟"

تذكرت قصص آلاف المعتقلين وأساليب تعذيبهم، مرت بذهني صورة عشراء من أبو ضبعو يكيلون لشبابنا ويلات وحشيتهم و ساديتهم و حقدهم، فأجبتها بصوتٍ شارد ..

- "تحت التعذيب؟"

- "لا! لقد مات منسياً! مات في الزنزانة المنفردة، حشروه هو و سنلاً آخرين في منفردة واحدة، و نسوه تماماً!"

نطقت كلماتها تلك و غرقت في نوبة جديدة من البكاء و هي تشهق من خلال نحيتها ودموعها

- "مات... خلال ثلاثة أيام!"

الزنزانة المنفردة، كلنا بات يعلم تفاصيل أكثر من اللازم عن ذلك "السجن - القبر"، هي غرفة أقاموها في معتقلاتهم، أصغر من مساحة القبر، لها باب معدني صغيّر يمتد على مساحة وجه كامل من أوجه مكعب الموت ذلك، "حبس الدم" كلمة كنت أسمعها في كل مرة أزور فيها قلعة حلب الشهيرة، فسجن "حبس الدم" كان من أشهر أثارها، كان قبواً يُرمى فيه السجناء حتى تفيض دماؤهم، لكن خيالي الطفولي صور لي غرفاً صغيرة يحبس فيها السجن حتى "يحبس دمه" يبدو بأن الفكرة المرعبة لم تطرأ على خيالي فقط، ففكر بها غري و قرر تطبيقها

"كانو يضعوننا ستة أشخاص سوياً في منفردة واحدة... لا تسألني كيف! و في مرة وضعوا أكثر من خمسة عشر شخصاً مرة واحدة...!!!!!! أيضاً لا تسألني كيف، لكننا استيقظنا صباحاً يوماً على خبر استشهاد ستة منهم،

قال لي جلال زنزاني يوماً بسادية بأن الفرع كله تلقى مكافأة في ذلك اليوم بروحاً بذلك الإنجاز العظيم."

تلك كانت شهادة أحد المعتقلين الناجين، ارفقها بصورة لا أظن أي إنسانها ما حيثت، يقف فيها بداخل إحدى تلك الزنازين وحيداً، ليعرض استحالة الفكرة، لكنهم كانوا بإجرامهم قادرين على كسر جميع قوانين المنطق و المعقول!

- "نظام مجرم، حفنة من الكلاب!"

لست أدري إن أطلقت كلماتي الغاضبة تلك لأواسيها أم لأسيطر على إحساس بالآلم كاذ يتجاوز قدراتي على الاحتمال."

- "عبيد بشار! ماذا تتوقعين منهم!"

سحيت نفسيها من دوامة دموعها و ارتسمت على عينيها نظرة يأس و خوف، و شيء آخر لم أتمكن من إدراك كنهه ..

- "لا يا سهام! لا! .. الأمر أكبر من مجرد "هم" و "النظام" و أحلامك النضالية الرومنسية، عليك أن تدركي الواقع، يجب أن تعرقي بأن الاثنين ينتقانان بتوحش، و نحن فقط من يدفع الثمن و تتم تصفيتنا الواحد تلو الآخر، البارحة قضى ابن عمي على يد الجيش الحر و اليوم قضى زوج أختي على يد الجيش النظامي، من يعلم متى يحل دورك، و على يد من! من يعلم متى يحل دوري، و على يد من!"

بعضهم لم يفقد الأمل بي، فينذّر محاولاتٍ خجلةً للبحث عني بين أكوام
الأمي، ليُصعق من شدة برودة جليد ذاتي، ويتعدّد هارباً بمشاعره الغضبة عن
أمة جرحي وقسوتي.

- "أنسة سهام، أنتِ مريضة؟"

كانت إحدى تلك المحاولات من لونا الرقيقة، وهي تمسك بيدي برقه فيمَا
لحدق فيّ بعينها اللوزيتين البرلّيتين، وددتّ لو أخذها في حضني وأغرق في
موجة عميقة من البكاء، لكنني عوضاً عن ذلك سحبت يدي من يدها و
أشحتّ بناطري وأنا أرد بجمود:

- "لا يا لونا أنا بخير."

لممتّ الطفلة أطراف حياها بلا مبالاة، وابتعدت لتلعب مع زميلاتها في
الفسحة، زفرتّ بأسمى، كنت أدرك حجم ما أحسره، لكن عزائي كان في أنني على
الرغم من ذلك، ومهما بلغ حجم خسارتي إلا أنني في عالمهم دوماً أشعر
بالامان.

سكاكين الواقع العاري كما صورته لي، أخذت تخترق جراحي بقسوة
عنفٍ لتريد من نزيف أحزائي، فيما تلاحقت أمامي صور سميرٍ وهو يتهاوى
فيضيق البريق من عينيه السوداوين إلى الأبد، فيما استرجع خيالي صوتاً بارداً
.. "قلت بأن قنّاص الجيش الحرقلة؟ ... إن تركه ليموت كالكلب .. موت أبي
واحيد منهم يعد مغتماً لنا .. حرّيتك أن تكون سعيداً"

زين جرس الحصة الأولى أسعفتني، فهربت من أفكارني بسرعة وأنا أنهدم
من على كرسي، تابعها بعيناي وهي تتبعد بهدوء فيما تلاعبت نسمات خفيفة
بردائها الأسود الحزين، سؤالٌ سرّخ لمع في ذهني "هل عليّ أن أردني الأسود
لسمير؟"

جاء الجواب مقتضباً من بين شفّتي ..

- "عبث!"

حملت حقيبي وأوراقني واتجهت نحو صفي، إلى عالم أحيائي الصغار
بعيداً عن عالمنا المترهل القبيح، نعم لقد كان سميرٌ على حقي في هذا أيضاً،
كنت دوماً أحيس نفسي في فقاوعة عالم الصغار لأهرب من الواقع والآمه.

مساحات الألم كانت لا تزال تفصل بيني وبين الأطفال، فمحاولاتي لإخفاء
مشاعري كانت تصبهم بالرغبة والإحباط، فالأطفال كتلٌ ممتعة من المشاعر و
الجمال، لا تمنع ثقتها كاملة إلا لمن يماثلها إحساساً وحياءً، أما أنا، فقد
أصبحت فاقدة للإحساس.

كان ذلك اللاجئين و ألم النازحين ينساب بحزن حول خرائط تيشيرية لما
من بالدويلات السورية. لماذا! ولمن؟ ومن رحم الأسئلة الكثيرة تولد أسئلة
البر وأعدت... أهذه هي ثورتنا؟

بيض دم ينسكب ليل نهار ليروي شجرة الثورة الوليدة، فتتعلق عليها
المفليات متسلقة متوحشة، تستنزف كل دماننا و أماننا، تلتمها بشره فيما
تساقط أوراق الحرية بآلم، وتموت براعم الأمل..

" و لأنه يخرج من روح الأرض .. يقصفوه .. و لأن موسمه حان أو انه
يهربروه .. الياسمين الشامي .. يُقطف بأشبع الطرق .. يقطفونه بصواريخ
الأرض أرض "

كلمات دامية حزينه نشرها صديقي رامي على مساحته الافتراضية، رامي
القابع في منفى خبس فيه طائعا هرباً من شيخ يجثم فوق صدر كل من سؤلت
له نفسه أن يكون مواطناً حراً على الأراضي السورية ، المعتقل ..

نعم، لقد استشهد في بلادي عطر الياسمين .

بلادي، المتنازع عليها ..

بلادي، ما بين "إمارة" و "عرين" ..

بلادي، حيث يكافح الشرفاء ليُبعدوا عن أنفسهم أصابع الحقد والاثم، و
يرتج الأثمون بوحشية و طمع ..

بلادي، التي هجرها كل أحبها ..

في نهاية اليوم الدراسي صادفتها مجدداً، كان الألم لا يزال مخدباً في
قسماتها و الحزن يحتل عينيها الحزينتين المحمرتين لشدة البكاء، منحتني نظراً
سريعاً حملت الكثير من المعاني و غادرت بهدوء، حاملة جعبة من الأسى و
اليأس، تاركاً في نفسي الآف الأسئلة، أسئلة كانت تطوف في أفق ذاتي بمرور
منذ رحيل سمير، أسئلة طالما أثرت أن أوندما، لكنها اليوم أخذت تفرق في
حواصل أفكاري كعصافير حبيسة، ترفض الركون لهدوء سجنها الصامت
معلنة أن حان وقت البحث عن إجاباتها .

وصلنا إلى المنزل، غرّدت أمل بسعادة عند اكتشافها عدم انقطاع التيار
الكهربائي، جلست أمام شاشة التلفاز بسعادة و هي تضحك ببهجة، تغربدها و
ضحكاتها لم يحمل لذاتي موجاتٍ من النشوة و الفرح، كانت روي مغلفة
بأكوام من المشاعر البغيضة .

جلست أمام شاشة الحاسوب بعد غيابٍ طويل، لقد أهملت نشاطي
الفيسبوكي منذ مدة، لا بد أن العودة إليه ستعيد لي شيئاً من توازني و ثقتي،
كنت محتاجة فقط لما يجدد حماسي، لما يوجب شعله الثورة بداخلي، أخذت
أقلب الصفحات ببطء فيما كان يموت آخر أملٍ بداخلي، فبدلاً من أن تغمرني
مشاعر الغضب، و التمرد، و القوة، أخذت الظلال القاتمة تراكم في صدري و
تطبق على أنفاسي، فقيض المشاعر الافتراضية ما كان بعيداً عن سحابة
اليأس التي غزت كل شبرٍ في بلادي .

بلادي، حيث انتشرت نغوات خيرة الشباب على حوائط كلا "المعسكرين"
موسومة بدعوات بغضبة للثار، مطالباً بالمزيد والمزيد من الدماء ..

بلادي، التي بات الموت فيها يخضع للإقامة الجبرية ..

بلادي ...

تراها ما زالت بلادي؟ أم أنها عادت، كما كانت... بلادهم؟

صندوق المحادثة انبثق ليحررتني من صور و كلمات كانت تمتص روحي
بهم ..

- "سهام، أنا قلقٌ بحق! طمئنني عن أحوالكم."

- "نحن بخير يا خال، لا تخشَ شيئاً."

لحظات صامتة أحسست فيها الخال يتسلل إلى داخل روحي ويسترق السمع
لصوت أنين أحزاني وبأسي، لحظات أنهاها بإرسال رسالة جديدة.

- "قد كلمنا الخالة رضوى، هي قادمة إلينا قريباً، كلنا هنا نتوقع منك
أن ترافقها يا سهام، تعالي أنت أيضاً."

مرت بضعة ثوانٍ قبل أن تكتب أصابعي الردّ بتردّد لم أعهده يوماً:

- "أنت تعرف رأيي ... لن أترك .. بلدي."

- "الأزليّ تعيشين وهم الثورة؟! ألا ترين ما آلت له حال البلد؟"

- "هي تضحيات لا بد من دفعها لنصل إلى الحرية."

كلمات كررتها ببلاهة دون حتى أن أقنن بها فجاءت ضعيفةً تافهةً فيما ردّ
عليها خالي ياسر بقوة ..

- "أية حرية تلك يا سهام! أية حرية؟! "

جمدّت أصابعي على لوحة المفاتيح، مكتلةً بأصفاٍ من بأس و ألم، فيما
أابع هو بتصميم

- "لن أقبل منك أعداراً هذه المرة! إن لم تفكري بنفسك، فكري بأمل!
هكذا توذّن لها أن تكبر؟ دون إحساسٍ بالأمان أو الطمئينة؟

- "لكن الأوراق! .." كانت تلك آخر حجةٍ تمكنتُ من استخدامها
لحطّمها بقوة ..

- "سأتولى أنا ذلك، سأبعثُ لك بشخصٍ يتابع معك سير أوراق السفر
كما فعل مع الخالة رضوى، حدّدي لي فقط اليوم المناسب لك."

هربتُ أصابعي من رسنٍ عنادي وخطتُ بسرعة:

- "الثلاثاء."

وفيما تابع خالي سرد بعض التفاصيل، انسابت الألام في عروقي " لا! لم
تعد بلدي": أيقونة ابتسامةٍ صغيرةٍ صفراء أرسلها خالي ليُنهي بها الحوار، و
على الرّغم من وداعة تعبيرها ولطافته إلا أن صفارها استفزّتني كأنما هزّت من
ضعفي، كأنما هزّت من خسارتي.

أطبقتُ شاشةً جهازِي بغضبٍ لأجد الدموع تملأ وجهي، معلنة وفاة وطن .

كان من السهل جداً أن تجد سيارة أجرة هذه الأيام، فالارتفاع الخيالي في أسعار المحروقات، متبوعاً بارتفاع أمد في أجرة وسائل المواصلات، حول أكار الشعب إلى راجلين أو لراكي "ميكرو باص" في أحسن الأحوال .

بسمه سخريه علّت وجهي وأنا أذكر كيف كانت الـ"٢٥" ليرة كافية لأجرة مشواري .

دخلنا في شوارع فرعية كثيرة، كانت لتثير قلقي وشهتي في نوايا السائق سابقاً، لكن ومع الإغلاق التام لأغلب الشوارع الحيوية، والانتشار المكثف للحوادث في كل مكان، كان الالتفاف هو الحل المنطقي الوحيد .

على بُعد شارعين عن وجهتي توقّف السائق مطالباً بثلاثمائة ليرة سورية، فتحت فمي لأعترض، لكن أتر ثلاث رصاصات على الزجاج الأمامي وبضعة أخر على السفن والأبواب أنباتني بقصة رجل يواجه الموت كل يوم لأجل لقمة عيشه وأسرتة، أغلقت فمي وسدّدت المبلغ الباهظ بصمت .

أسرعت في خطواتي، فقد تأخرت خمس دقائق عن الموعد الذي حدّده خالي لي مع "محمد"، وعلى باب بناء مصلحة الشؤون الاجتماعية حيث كان موعدني.. جاءني تأخير آخر مزعج، في هيئة رجل بيزّة عسكرية يرفض دخول أو خروج أي شخص "لأسباب أمنية" .

وقفت غاضبة متأففة في وسط ازدحام المراجعين منتظرين انتهاء "الحالة الأمنية الطارئة" : صوت قعقة لفت انتباه الجميع، حولت نظاري لجهة الصوت، لأفاجأ بمشهد يجمد الدم في عروقي! كان العشرات من الرجال

يساقون بصورة، ما كنت لأتخيل أن أرى مثلاً في عصرنا هذا، أصفاداً على الأيدي والأرجل، ملامح جماعية من الذلّ والانتكسار، يطوقها حبل طویل من السلاسل الحديدية، تربطهم الواحد بالآخر في سلسلة طويلة يتبعها عسكري مسلّح ينهال عليهم ضرباً و شتماً، دخلوا البناء الواحد تلو الآخر مغلقين بصمت مُطبق، لا يقطعه إلا صوت العسكري مستعجلاً ناهراً شامتاً، غابوا عن ناظري، وبعد قليل غاب صوت العسكري مع صوت السلاسل الرهيب، و فُتح الطريق للمراجعين ليتابعوا سيرهم وأعمالهم، وقد فعلوا، أخذ الجميع يتابع حركته دخولاً وخروجاً بهدوء غريب! فيما ظللت أنا واقفة في مكاني بذهول، غير قادرة على استيعاب المشهد الأليم ... ماذا أفعل؟ ماذا أستطيع أن أفعل! أيستطيع أي أحد أن يفعل أي شيء؟

رَنَات هاتفِي الجوال انتشلتني من إحساسي تامّ بالعجز...

- "سيدة سهام، تاخرت!"
- "نعم يا محمد أنا أسفة، في أيّ طابق أنت؟"
- "بانتظارك أمام المكتب في الطابق الثاني."

أعدت الهاتف لحقيبتي وصعدت للطابق الثاني محاولةً جهدي لأرسل صورة المعتقلين إلى خانة الذكريات، لأننا سير حاضري بانأنيّة مطلقة: ما أن وصلت إلى وجهتي حتى وقفت مُقلّبةً وجوه الواقفين بحثاً عن من يمكن أن يكون محمد، لأجد رجلاً يقرب مني، لا بد أنه هو، كان رجلاً في أواسط العمر، بسيط الملامح ضئيل الحجم، حتى أنني كنت أفوقه طولاً، ثيابه البسيطة تدلّ على رقة الحال، بسمه لطيفةً على وجهه طالعتني وهو يسأل بأدب:

- "السيدة سهام؟"

- "نعم أنا، أنت محمد؟"

أوما برأسه وأشار لي لأتبعه لمكتب قريب، بمجرد وصولنا للمكتب بأدوار الموظف بالتحيات الحارة، أخذ منه الأوراق وسأله ببساطة كأنما يسأله عن حال الطقس ..

- "كيف حالكم بعد الهجوم الأخير؟"

كسبت السخرية ملامح محمد وهو يرد ضاحكاً ..

- "بخير والحمد لله، لقد حصلنا على بعض التحسينات المنزلية برعاية بشار والجيش."

- "تحسينات؟"

- "نعم، كنت أقطن في الطابق الثالث، الآن أنا في الطابق الأرضي، كان لمتري نافذة واحدة، والآن بحمد الله بات لدينا خمس نوافذ!"

ووسط ذهولي الشديد، انفجر الاثنان ضاحكين فيما أحدثت أحملق فيهما باستغراب، أدرك محمد حيرتي فردّ على سؤالي الصامت والابتسام لا تفارق شفتيه:

- "قصّف جويّ بالإضافة إلى بضعة قذائف هاون."

شهقةً بدرت مني وأنا أسأله غير مصدقة ..

- "على بيتك؟!"

هز رأسه موافقاً ثم استأنف:

- "فداهم بيبي، فداهم ألف بيت إن كانوا سيجعلونهم يرحلون!"

اغرورقت عيناى بدمع أخضيته وأنا أنظر بعيداً، ياله من بطل! ها أنا ذي اهرب من بلدي يانسة، فيما يقبع في بلدي أبطالٌ مثله يدفعون كل غالٍ في سبيل الحرية، هذا رجلٌ خسر منزله، وما زال يضحك ويتسم قانعاً راضياً، لفرقت في دوامةٍ من الخجل والبضعة والصغر! بمثل محمد تحي الثورة.

سلم الموظف الأوراق لمحمد وهو يسأله بصوتٍ خافت ..

- "سمعتُ بأنكم تعدون العدة لهجوم معاكس على الجيش الحرّ."

فردّ محمد بصوتٍ قويّ فخور ..

- "لن نُبقي على رجلٍ واحدٍ منهم!"

جمدت أطرافى وأنا أستمع للحوار، لا بدّ من أن هناك سوء تفاهم، لا بدّ من خطأ هنا! هجوم ... على الجيش الحرّ؟! عدوّ للثورة!! كيف!! هذا الذي كنت أحسبه بطلاً!!

أشار لي لأتوجّه نحو مكتبٍ آخر، تقدّمني ماداً ذراعيه للصغيرين مبعداً أيّ احتمالٍ تماماً بيبي وبين ازدحام المراجعين ليحمني من أيّ إزعاج مردّداً "ابتعد لو سمحت... حرمة ... ابتعد ... حرمة" ..

أنهينا أغلب الأوراق، وفي انتظار أجراءات على أحد المكاتب لم أتصالح
من إيقاف سيل الأسئلة المتسرب من ذاتي. هذا الرجل !! لا بد أن هناك سوء
فهم هنا !

- "محمد، أنت من أين؟"

- "الشيخ مقصود."

هزئت رأسي بتفهم، "الشيخ مقصود" كانت مسرحاً للكثير من العمليات
مؤخراً، بعد إعلان الأكراد دعمهم للجيش الحر، في حين التفّ بعضهم ليغدر
بالقوات الموجودة في المنطقة خلال معركة "تحرير الشيخ مقصود".

لذا كان السؤال المنطقي التالي :

- "أنت كردي؟"

- "لا، أنا ماردلي."

ما كنتُ لأميّز معنى هذه الكلمة من قبل، لكنني مؤخراً سمعتُ الكثير عن
"الماردلين الأندال" "شبيحة النظام" اللذين يكيلون العذاب والنذال لثواناً
لأكراد "الشيخ مقصود" سمعتُ كيف دخل الجيش الحر ليحرر الأكراد من
هذه الطائفة البغيضة، لكن كيف؟ ولماذا؟ لا يبدو محمد مرتزقاً، ولا رجلاً
للنظام ... ثم .. منزله ..

- "الجيش الحر هو من هدم منزلك؟"

- "لا، الجيش النظامي."

- "لماذا إذاً....."

قاطعتني بهدوءٍ والجدية ترسم على تقاطيعه البسيطة ..

- "سيدتي أنا لا أملك في هذه الدنيا الفانية إلا شيئين، منزلي وكرامتي،
فإن هانت عليّ خسارة منزلي فأنا لن أقبل أن أعيش إن خسرتُ كرامتي !
الطريقة التي انتهكوا بها بيوتنا، أن أفتح بابي لأرى رشاشاً مصوباً نحو صدري،
وعشراتُ الرجال يدخلون البيت ليفتشوا كل شبرٍ منه، أنا كنتُ محظوظاً،
زوجتي وأبنائي سافروا تركياً منذ شهر، لكن غيري امتننت كرامته لأبعد
الحدود! كل هذا لأني ماردلي؟! لأخسر ألف بيت! لا يهمني! إن كان ذلك ثمناً
ليرحلوا عنا!"

دقائق صمتٍ مرتت، مسح فيها نظرة التصميم من على عينيه ليحلّ محلها
النظرة الساخرة السابقة، وهو يكمل ضاحكاً:

- "ثم إن مواصفات منزلي تحسّنت فعلياً، من يحتجّ على نوافذ
إضافية؟!"

من تحت ضحكته بانث آثار ارتعاشة خفيفة، تؤذن بسيل جارٍ من
الدمع، محتبسٍ في روح كسيرةٍ أخرى، ضحيةٍ أخرى من ضحايا الحرب .

ماردلي .. كردي .. سمعولي .. علوي .. شيعي .. شركسي .. أرمني .. مسيحي ..
ماروني .. سني .. جزراوي .. سوري ... سوري ... الكلّ في النهاية سوري !

استلمت أوراقني من محمد، شكرته على مساعدته، تركته لكن أثر كلامه
ظلّ يعصف في رأسي بعنف .

استقلت سيارة أجرة أخرى، وسمعت للنسمات المتسربة من النافذة بأن تحملني معها وأنا غارقة في حרב مع ظل أسود كويه يبت سموه في داخلي بحقد، كان وحشاً من عنصرية، وحث يقبع داخل كل واحد منا، بلبد المختلف، وبهمس بحقد في داخلنا

إنه ماردللي، سمعت ما قالوا عنهم! إنهم كلاب بشار و خدامه، شبيخ يستحق، لا بد أنهم دخلوا منزله لأنه شبيخ هو الآخر، الماردليون وضيعون، أنجاس، لا عرض لهم ولا شرف! أكمل الظل همساته الصفراء فيما بدأ يتشكل في شكل أعرفه جيداً! تغيرت نبرة صوته لتطابق نبرة لن أنساها ما حبيت ..

" اتركه ليموت كالكلب .. موت أي واحد منهم يعد مغنماً لنا .. حرّبي بك أن تكون سعيداً!"

" ماردللي يستحق، لا عرض له ولا شرف!"

إلى جانب الظل القائم استرجع خيالي صورة محمد، وهو يدفع الناس ببديه الضئيلتين ... " ابتعد .. حرمة "

فيما تابع الظل همسه الخافت: " لا عرض ولا شرف "

سؤال ضخم بدأ يتشكل في داخلي بإصرار ...

أيها أحق بنصرتي؟ من يعارض الثورة، ويحترم الآخرين؟

أم من يدعم الثورة، ويحقد على الآخرين؟

الجواب كان واضحاً بدرجة مؤلمة، سأهرب من هذه البلد! سأهرب منهم، سأهرب من كل شيء!

انثلني من أفكار صوت انفجار ضخم اهتزت له السيارة بقوة، نظرت للسائق مستفصرة ..

- "انفجار قريب جداً سيدني، قادم من الفرقان."

صخرة ضخمة من قلبي جثمت على صدري خانقة كل أنفاسي، أمل! أمل وحدها في المنزل!

مسافةً قليلةً قطعها السيارة قبل أن تتوقف، أعلن السائق بأنه لن يتمكن من التقدم أكثر، فالانفجار تبعه اختناقٌ مروريٌّ حادٌّ في حين اندفعت عشرات العربات في الاتجاه المعاكس، مبتعدةً بسرعةٍ عن مصدر الانفجار .

دفعت الأجرة، خرجتُ من السيارة بسرعةٍ واتجهت نحو البيت بخطواتٍ الليّةِ راكضة، فوضي حواسي غطت على كلِّ شيء: أغمضتُ عيني لأفرد مساحة ذاتي كاملةً لتدفق الأفكار والعواصف بداخلي ..

أمل !

ضحكتها البرينة داعبت دموعي والامي ...

أمل ..

كنتُ قد أخذتُ أهربُ من عينها الواسعتين، و من سلسبيل جمالها الرقيق منذ مدّة، هربتُ من ضحكتها المجلجلة، طردتُ فراشات أحلامها، و طيور بسماتها المغرّدة، مذ قبعث أسيرة محراب ياسي؛ كنتُ أبعدها .. كي لا يشوب سعادتها نسيج ألي و ياسي، نسيبتُ أنّها بكلمة " أحبك ماما " كانت لتقهر أعمق جراحي وتداويها، أم لعلي كنت أعلم؟

كنتُ قد صممتُ على الهرب، قررتُ أن أهرب من سوريا، من الوطن، من الثورة و من الأمل، فنبذتها و نبذتُ سعادتها، و قبعثُ أسيرة غريبة استوطننتني .

قصفتُ في الفرقان؟ في حيننا! في بيتنا ؟

ماذا تفعل إذا تحولت حياتك كلها في غمضة عين، إلى مساحةٍ من الفراغ؟

ماذا تفعل إذا امتزجت البيوت في كومةٍ من أنقاض؟

ماذا تفعل إذا تشابكت القصص والمقدّرات، لتخرج كلها سوياً ضفيرة من عدم !

ها هنا... ها هنا كانت حياة !

تجاهلتُ أصوات صافرات الإنذار و طرقتُ المعاول، صرخات اليأس و عويل الألم، آتات الأحياء و الأموات و رائحة الدم الوخّازة!! تجاهلتُ كلَّ شيءٍ و واصلتُ الغوص في صورة العدم ...

أمل ... أمل .. أين أمل ؟ !

من بين أرجلي كثيرةٍ لاحت خصلةً بنيّةً حبيبية، و دميةٌ أعرفها جيداً ... دمية أمل !

و توقف الزمن، توقفت الحياة بأسرها، تكدّس وجودي كله في لحظةٍ انتهى فيها الكون، ذلك الجسد الصغير التائه تحت الركام ... جسدها ... جسد أمل فساتنها الأخضر الجديد، بالزهور الوردية المنمنمة على أطرافه، مُزقةٌ منه ارتمت بيأسٍ بين أكوام الحجر. الإحساس انتهى، الحياة انتهت، ما العمر إذا ما ذاب الربيع؟ بخطواتٍ مهالكةٍ تمكّنتُ من دفع نفسي نحوها، سحبتُ المُزقة الصغيرة من التراب، سنصلحه سوياً، ثوبها سيعود جميلاً كما كان، كل شيء... كل شيء سيعود كما كان! تمأويتُ على ركبتي و اقتربتُ من الوجه الشاحب... إنّها هي ... أمل !

صرخة ماتت في حلقي، وغارت كل دموعي خضوعاً، اختفى وجودي بشكل مطلق، وجودي غاب بغياها ... لكنها .. هنا .. ما زالت هنا .. من قال أنها غابت!

امتدت اصابعي لتلمس وجنتها المتربة بعنان، بسمه رقيقة علق على شفتها فيما تنائر اللون الأحمر في كل مكان ..

- "حبيبي ... حبيبي .. ماذا حدث لك ؟ تمدد يدك لتحضيني؟ لماذا الكدمات على ذراعك ؟ لماذا الكدمات على خديك الغالي ؟"

قربت شفتي من وجنتها المتورمة، قبلتها وأخذت أغني ..

" قمره يا قمره .. لا تطلعي عالشجرة .. والشجرة عالية ... و إنني بعيدك صغيرة .. قمره يا قمره !"

- "تعالى يا حبيبي .. تعالى معي .."

مددت ذراعي لأحضن التراب، و في لحظات عاد الضجيج إلى الكون البقيض، عشرات الأيدي امتدت، تبعدي عن حبيبي . كلمات كثيرة تناثرت من أفواههم .. "الله " "الصبر" شهيدة " لا .. لا! .. ابتعدوا .. هي فرحة قلبي أنا .. هي أيامي .. أملي .. إنها أمل !

أبعدوا كاميراتكم عنا، أبعادوا نظراتكم اللانسة، للموا شفقتكم وابتعدوا .. إنها أمل ! ... ستقوم الآن .. ستقفز بين الأطلال ضاحكة مغردة .. ستطالبي بفساتن جديد سأشتره لها ... سأشترى لها عشرة فساتين جدد .. ابتعدوا ... ابتعدوا ... إنها أمل !

لكنها صامته الآن .. ستتكلّم! .. تكلمي يا أمل! .. أبعدى معاولهم عنك .. قولي لهم ... قولي .. قولي لي .. "أحبك ماما"

بحثت عن عينها بيأس، أين عينها الجميلتين اللامعتين؟ أين زمردتاي الخلابتان؟ أين أمل ؟ ما هذه بعيناها! هاتان العينان الخاويتان، هذا الفراغ المؤلم ، ليس لأمل! أعرفه جيداً ...

تلاشت كل الأصوات، اختفت الأذرع الكثيرة، اختفت الأنفاس والركام، لأجد نفسي في غرفة ضيقة كئيبة، العينان الخضراوان... لا ليستا خضراوين، إنهما العينان السوداوان الضيقتان، والفراغ القاتل بداخلهما، الجسد المسخى على السرير المعدني أمامي، ليس جسدها، ليست أمل .. إنه سمير .. نعم سمير من رحل .. هو الماضي .. هو الألم .. هو فقط، من يحق له الرحيل .. إرحل يا سمير ... إرحل .. أما أمل، فهي باقية .. هي المستقبل ... هي الحياة نفسها .

فتحتُ عياني ببطءٍ و أنا أستخرج روعي من حلم يقظةٍ فرضه عليّ خيالي
القلق، لقد كان .. حلم يقظة !

تابعتُ خطواتي بسرعةٍ نحو البيت، نحوها، نعم! هي مازالت هناك، لا
زالت تنتظرنني هناك، بالحبِّ الغامر في قلبها، بالضحكات المتراقصة في صوتها
العذب، ببراءة كلماتها وقسماتها ..

لن نساقر! لن نرحل! سنحارب الدنيا بحبِّنا وسعادتنا، سنعلّم الدنيا
كيف أن ضحكة طفلٍ أقوى وأعمق من كل مدافعهم ..

سنعلّمهم كيف...لمسةً من حب ... تقهر كل عنصريتهم وأطماعهم ..

ستحبي أمل .. ستحبي! سيزهز الربيع من بين كفها، وسيطرّح الياسمين
عطره في شوارع مدينتنا الحزينة، ستشرق شمس الغد رغماً عنهم ! ستشرق
شمس الغد لتمسح عتمة الحرب والدمار، سيحتضن الألم وتهمر أمطار
السلام ..

أمل ... هي الغد، وحشيتهم لا تطالها، وحشيتهم لا تطال إلا الماضي ... و
الماضي فقط، أما الغد .. فهو لها .. لهم، الغد .. للأمل ..

ستبقى أمل .. ستبقى ... وستبقى سوريا عنواناً لها ..

في سوريا ... لن يموت الأمل .

النهاية

حلب ٢٠١٣\١٣

عملية خلق طفلٍ أدبي هي عمليةٌ مرهقة ، تستنزف طاقات الكاتب و تدخله
في حالات من القلق و اللا توازن و الإرهاق، و ليمضي بسلاّم في رحلة خطّه
مكتونات نفسه و عصاره فكره يحتاج إلى دعم جبار من أناسٍ يثق برأيهم و
حكمتهم .. كنت أنا من أشد الناس حظاً في ذلك فكان لي مجموعةٌ من الأصدقاء
ساندتني بشدةٍ من البداية و حتى نهاية رحلتي مع أمل .. لذا و شكراً مني و اعترافاً
بدورهم الضخم في إخراج أمل إليكم أترك لهم كلمتي الأخيرة ، من كل قلبي ..
أشكركم.

شكراً خاص لكل من

مروة مأمون لإيهاك لي لأبدأ روايتي الأولى

محمد علم الهدى لإيمانك و دعمك لي على مدى عام و نصف

محمد عصمت عيناً أحاول إحصاء أسباب شكري لك

أميمة ماهر

أمير المنجي

مي عبد الخالق

ساره وصال

لمتابعتكم لي طوال مدة تأليف الرواية و دعمكم المستمر لي، لتشجيعكم و
ملاحظاتكم .

أمل

في زمن تواترت فيه الأنباء واختلفت في وقت لم نعد نعرف فيه الحقيقة .. جاءت الكاتبة العميرة / دينا نسريني لتبهر لنا عقولنا عن حقيقة سوريا وما يحدث , خطت لنا بكلمات بسيطة ملحمة تراها رؤى العين قبل أن تقرأها , وتقرأها بقلبك قبل عينيك , ملحمة تبنيك أن سوريا ليست سوريا النظام وليست سوريا الحر ... سوريا هي سوريا الأمل
الكاتب / محمد عصمت

سوف تأخذك أمل في أماكن لن تتخيل أن تصل إليها في يوم من الأيام لتنتقل بكل بساطة إلى الحياة السورية بكل متناقضاتها .. أحاسيس غريبة ستشعر بها .. رغم إختلاط الأمل بالحزن طوال الرواية إلا أنك لن تستطيع أن تتوقف لحظة عن القراءة بل عند الانتهاء سيكون عندك فضول المتابعة كل ما تقدمه الكاتبة من جديد .. دينا نسريني أبدعت في أمل وأثق تماما أنني سأندهش كلما أخرجت ما جمعبتها من درر
الكاتبة / أميمة ماهر

ISBN 9789776436510



9 789776 436510

